الجزء الأول

الخليفة العادل

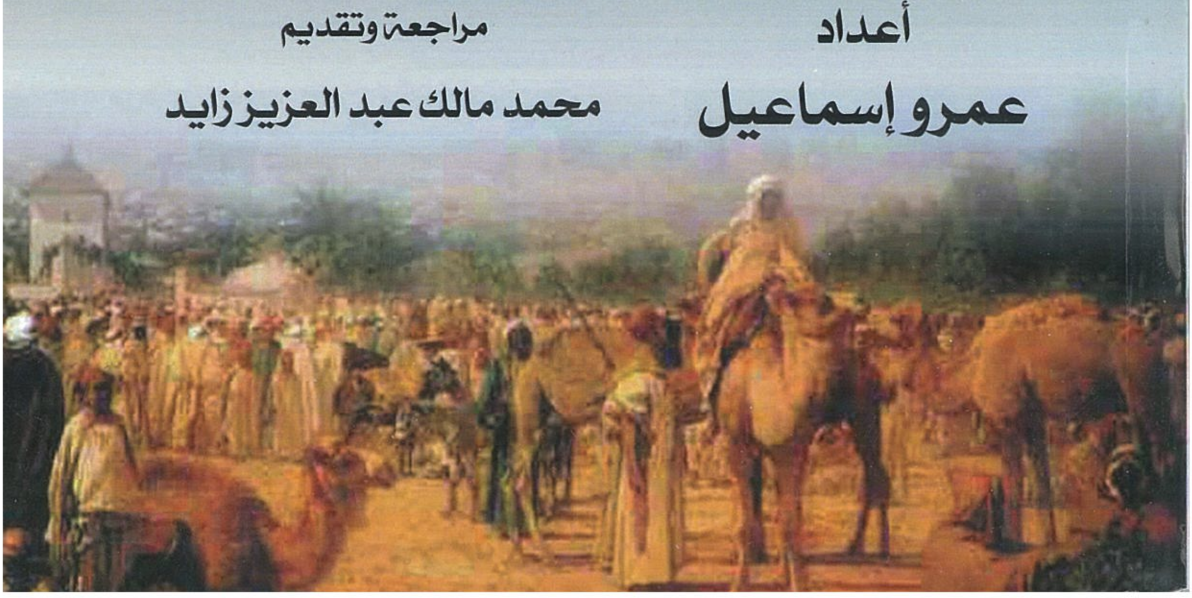


عمر بن عبد العزيز

خامس الخلفاء الراشدين

أعداد
عمرو إسماعيل

مراجعة وتقديم
محمد مالك عبد العزيز زايد



دار نوبل للنشر والتوزيع

الخليفة العادل

عمر بن عبد العزيز

خامس الخلفاء الراشدين

(الجزء الاول)

إعـداد

أ/عمرو إسماعيل

مراجعة

أ/محمد مالك عبد العزيز زايد

دار نوبل

للنشر والتوزيع

الكتاب : الخليفة العادل .. عمر بن عبد العزيز (الجزء الأول)
المؤلف : عمرو إسماعيل
مراجعة : أ/محمد مالك عبد العزيز زايد

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع
٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني
العمرانية الغربية – الجيزة.
ت : ٠١٢٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١
Email: Darnobel@yahoo.com
الطبعة : ٢٠١٨
رقم الإيداع: ١٤٤٥٦ / ٢٠١٨م
الترقيم الدولي : ٦-٧١- ٥٦٤٨-٩٧٧-٩٧٨

- تصميم الغلاف: أمير عكاشة

الهيئة العامة للكتاب
الفهرسة أثناء النشر

إسماعيل، عمرو
الخليفة العادل .. عمرو بن عبد العزيز، عمرو إسماعيل، الجيزة، دارنوبل للنشروالتوزيع، ٢٠١٨
العنوان : ١٦٦ ص ، ٢٤ سم
تدمك : ٦-٧١- ٥٦٤٨-٩٧٧-٩٧٨
١- دراسات
٢- العنوان
ديوي ٩٢٠

الخليفة العادل

عمر بن عبد العزيز

خامس الخلفاء الراشدين

إهداء

إلي روح أمي العظيمة ودعائي لأبي وأخوتي وزوجتي وأبنائي

أن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله

إلي كل الحكام والمحكومين والخاصة من المسلمين

أهدي هذا الكتاب

المؤلف

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" .

حديث قدسي

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة يوسف: آية ١١١

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

أما بعد

سأل الإسكندر حكيماً: من يصلح للملك؟ فقال له.. إما ملك حكيم أو ملك ملتمس للحكمة.. والحكمة في هذا المقام معناها الفلسفة.. وقد قرن هذا الحكيم السياسة بالفلسفة واعتبرها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل العدل.. واشترط على الحاكم أن يكون فيلسوفاً أو ملتمساً للفلسفة ليعم الأمن وينتشر السلام وتستقيم الأمور وتصلح الأحوال .

رحلة قصيرة نقطعها مع هذا الخليفة العادل الزاهد، الذي ملأت أخباره الكتب، لعدله وخشيته وجلال أدبه وخلقه ورأفته بأمته! مع علم وذكاء، وزهد وقنوت، وفهم وسياسة وحنكة معها حكمة..

جاء الخليفة العادل رضي الله عنه في ظل ظروف سياسية وإقتصادية سيئة وفتن تضرب ربوع البلاد، ولم يكن لدى عمر بن عبدالعزيز عصا سحرية، وزعت الرخاء على الأمة، ولكنه استنهض الهمم بالأفعال قبل الأقوال، ولم يقف على متخاذل كسول ولا انصاع إلى رغبة طامع جهول، فنهضت الأمة بأسرها تسعى إلى رقيها، بصغيرها وكبيرها، برجالها ونسائها فكانت صحوة تسعى بكتلتها وبكامل حجمها حتى وصلت الأمة إلى الاستقرار والأمان .

خلال عامين وخمسة أشهر وأربعة أيام تقريباً استطاع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يسطِّر معجزة تربوية في تاريخ الإسلام؛ ففي هذه الفترة الوجيزة استطاع هذا الخليفة العادل أن يضع الأسس والأهداف لتربية المجتمع المسلم وفق المنهج النبوي الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته، والذي يحرم فيه الغش، والكذب، والرشوة، والفساد على الرعية .

ذلك المنهج الذي يعتمد على اقتران العلم بالعمل، والمعرفة بالتطبيق والإطلاع الذاتي على سير من سبقنا من السلف الصالح؛ بغية التأسي بهم والتزام فهمهم – في سلوكه القيادي والإداري والتربوي .

لقد بوَّأ الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مكانة سامقة في التاريخ الإنساني لم ينلها إلا الأفذاذ من القادة والفاتحين، والجهابذة من أئمة العلم، والعباقرة من الكتاب والشعراء. ويزداد عجبك حين تعلم أنه احتلّ هذه المكانة بسنتين وبضعة أشهر قضاها خليفة للمسلمين، في حين قضى غيره من الخلفاء والزعماء عشرات السنين دون أن يلتفت إليهم التاريخ؛ لأن سنوات حكمهم كانت فراغًا في تاريخ أمتهم، فلم يستشعر الناس تحولا في حياتهم، ولا نهوضًا في دولتهم، ولا تحسنا في معيشتهم، ولا إحساسًا بالأمن والإستقرار يعمّ بلادهم.

ولم تمنعه السياسة من تبوأ مقعده بين العلماء والحكماء، فقد زاحمهم واتفقت كلمة المترجمين لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على أنه من أئمة زمانه.

إن أهمية دراسة سير الرجال وذكر الصالحين وتشنيف الأذان بسماع أخبارهم، مما يثلج صدور المؤمنين وينزل السكينة في قلوب الموحدين، فهم القدوة والمثل، والنموذج الأسمى في تطبيق أخلاق الإسلام ومبادئه .

وقد كان القرآن الكريم يقصُّ علينا من أخبار الأنبياء عليهم السلام، فنحسُّ بالقمم الإنسانية الشامخة ترنو إلينا، فتستنهض هممنا، ويقص علينا أخبار الصالحين من غير الأنبياء، الذين كان لهم الدور الكبير في نشر كلمة لا إله إلا الله، وإعلائها، وتَحَمُّلِ الأذى، والصبر عليه .

قال الإمام ابن الجوزي: "واعلم أن في ذكر السير والتاريخ فوائد كثيرة، من أهمها أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، وسماع الأخبار، فالنفس تجد راحةً بسماع الأخبار"، فقراءة التاريخ، وسماع قصص الأخيار يحفز الهمم وينهض بالأمم.

يقول د. محمد موسى الشريف: " من المعلوم أنَّ التاريخ هو تراث الأمة وكنزها، وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة، وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها، وهو مغترف العبر والعظات لأحداثها، وهو بيانٌ لسيرة عظمائها، وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجلّ، وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى، وهو وعاء الخبرة البشرية" .

ولله در القائل:

استرشد الغرب بالماضي فأرشده ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنّا مشينا وراء الغرب نقتبس من ضيائه فأصابتنا شظاياه

كان منهجي في هذا الكتاب يسير على نهج من سبق، تحدثت عن نشأته وطلبه للعلم ومكانته العلمية وولايته وبيعته للخلافة وكيفية إدارته للبلاد وعمله بمبدأ الشورى وعدله ورده للمظالم وعزل الولاة الظالمين ورفع المظالم عن الرعية وأهل الذمة ومنهجة في نشر العلم وتدوين السنة وكذا منهجه في الإصلاح الإقتصادي والتنمية وذكرت

أخلاقه ومواقفه مع بعض الفرق والجماعات ووصاياه الحكيمة لعماله ولولي عهده وأهل بيته ووفاته وبعض مآثره وماذا قالوا عنه ثم كانت الخاتمة رضي الله عن أبي حفص عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل حامل لواء الحق والدين خامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

المؤلف

الفصل الأول

نسبه وأسرته

هو :أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعببن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأموي القرشي المدني ثم المصري.

ذكر ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة فقال: أمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. قالوا: ولد سنة ثلاث وستين، قال: وكان ثقة مأمونا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثا كثيرا، وكان إمام عدل –رحمه الله– ورضي عنه .

والده: هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من خيار أمراء بني أمية، بقي أميراً على مصر أكثر من عشرين سنة. ولما أراد الزواج قال لقيّمه: "اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح"، (فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب) وقيل اسمها ليلى.

أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ووالدها: أبو عمرو عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وكان طويلاً جسيماً من نبلاء الرجال، ديّناً خيّراً صالحاً، وكان بليغاً فصيحاً شاعراً. وأمه: هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة .

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال:

« بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعُسّ (العُس: تقصّي الليل عن أهل الريبة) بالمدينة إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: «يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء»، فقالت لها: «يا أمتاه، أوما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟»، قالت: «وما كان من عزمته يا بنية؟»، قالت: «إنه أمر منادياً فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء»، فقالت لها: «يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر»، فقالت الصبية لأمها: «يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء»، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: «يا أسلم، عَلِّم الباب واعرف الموضع»، ثم مضى في عسه. فلما أصبحا قال: «يا أسلم، امض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟»، فأتيت الموضع فنظرت، فإذا الجارية أيّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: «هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟»، فقال عاصم: «يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني»، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز » .

إخوته : كان لعبد العزيز بن مروان (والد عمر بن عبد العزيز) عشرة من الولد، وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم، وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين. وعاصم هو من تُكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فكنيتها أم عاصم .

وروى ابن شَوْذَب قال: لما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبد العزيز قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، قال: فتزوج أم عمر بن عبد العزيز .

وتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وولدت له إبنه الخليفة عمر بن عبد العزيز[١]

• أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب : هي ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب القرشية العدوية، وهي بنت تلك الفتاة التي اعترضت على أمها عندما أرادت أن تغش اللبن – وكان الخليفةعمر يعس بالليل يتفقد الرعية– وقالت لها إنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر فقالت الصبية لأمها والله ماكنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء فمن هذه البضعة الطاهرة كان عمر بن عبد العزيز فأسأل الله أن يرزق نساءنا مخافته في السر والعلن، كبرت و عاشت في منزل جدها "عمر بن الخطاب"رضي الله عنه، و تزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، وأنجبت له عاصم وبه تكنت ، وعمر .

حدثت عن أبيها عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: نعم الإدام الخل. حدث سالم الأفطس أن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة، وهو غلام بدمشق، فضمته أم عاصم أمه إليها، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل أبوه عليها على تلك الحال، فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول: ضيعت ابني، ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا! فقال: اسكتي يا أم عاصم، فطوباك إن كان أشج بني أمية.

كانت أم عاصم من المؤمنات العابدات اللاتي ربيّن أولادهن على البكاء من خشية الله وعلى الزهد في هذه الدنيا، وقد أكرمها الله وأخرج من صلبها سيدنا عمر بن عبد العزيز الذي عده الثوري خامس الخلفاء الراشدين.

قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة " أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز".

وهكذا أكرمها الله بطيب الأصل وحسن الذرية فهي ذرية مباركة طيبة نشرت في ربوع بلاد الإسلام العدل والأمن حتى عم الرخاء على البلاد. ومن الأخبار التي أوردها التاريخ عن أم عاصم: أنها كانت مُحسنة جوّادة.

عن أحمد بن سليمان عن الزبير قال: "لما ماتت رقية بنت عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عند إبراهيم بن نعيم بن عبد الله فدُفنت بالبقيع، انصرف به عاصم إلى منزله فأخرج له ابنتيه: حفصة وأم عاصم فقال له: اختر أيهما شئت فإنا لا نحب أن يتقطع صِهرك منا قال إبراهيم: لم يَخف عليَّ أن أم عاصم أجمل المرأتين فتجاوزت عنها وقلت: يصيب بها أبوها رغبة من بعض الملوك لما رأيت من جمالها وتزوجت حفصة، فتزوج عبد ا لعزيز بن مروان بن الحكم أم عاصم فولدت له عمر بن عبد العزيز وإخوة له، ثم هلكت عنده وهلك إبراهيم بن نعيم عن حفصة بنت عاصم فتزوجها عبد العزيز بن مروان بعد مهلك أم عاصم بنت عاصم وحُملت إليه بمصر وكان بأيلة إنسان به خَبل يقال له شر شمير، فكانت أم عاصم مَرّت به فتعرّض لها فأعطته وأحسنت إليه، ثم مرت به بعدها حفصة بنت عاصم فتعرض لها فلم ترفع إليه رأساً. فسئل أين حفصة من أم عاصم فقال: \"ليست حفصة من رجال أم عاصم ".

وكانت رحمها الله زاهدة في الملك و الولاية، فلم تفرح يوم تولى "عبد الملك بن مروان " شؤون الحكم لأنه قد آلت ولاية العهد لزوجها" عبد العزيز"إغتمت وحزنت و إنتظرت عودت زوجها لداره و ما إن دخل حتى وجدها متجهمة حزينة فما كان منه إلا أن

مولده ونشأته

ولد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في المدينة المنورة سنة ٦١هـ، وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي (ﷺ) وقد اختلف المؤرخون في سنة ولادته، والراجح أنه ولد عام ٦١هـ، وهو قول أكثر المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يُذكر من أنه توفي وعمره أربعون سنة، حيث توفي عام ١٠١هـ وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر وهذا القول ضعيف؛ لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز، ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبنو مروان في المدينة .

وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه(يلقب بالأشج)، وكان يقال له أشج بني مروان؛وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى اصطبل أبيه – عندما كان والياً على مصر – ليرى الخيل فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه

يسألها عن سبب حزنها فقالت: إني أرجوا أن تتعزل هذا الأمر الحكم و الخلافة و نعود للبادية لا اريد ان يؤول الأمر لولدي فكلها صراع و مطامع. فأجابها : هذا ميراث أبائي و أجدادي فلم أحرم ولدي من ولاية أمور الناس و رعاية شؤنهم بالحق و بما يرضي الله و هو ميراث أبائه و أجداده ،فأجابته قائلة : بئس الميراث الدنيا و فتنتها و لو كان هذا الميراث عرشا قوائمه من الذهب يجعل الناس يتكالبون عليه و يقتل بعضهم بعضا و لا يراعون ذمة لنسب و لا قربى و ما قتل عترة النبي صل الله عليه و سلم إلا التكالب على هذا العرض الزائل فارحمنا و إرحم و لدنا يرحمك الله. فإبتسم ثم قال لها: العرق دساس من شابهت أباها و جدها ما ظلمت يا زهرة من دوحة عمر عطرت بأريجها بيت عبد العزيز .

وهكذا كانت خيرة مُحسنة زاهدة و أما مُربية أخرجت لنا الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي عرف عنه "سيد البكائين ". ومما جاء في ذلك عن أبي قَبيل: أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير قد جميع القرآن، فأرسلت إليه أمه فقالت ما يبكيك؟ قال: "ذكر الموت " فبكت أمه من ذلك .

وهكذا كانت السيدة أم عاصم أماً صالحة سجلها التاريخ في سجل الأمهات الخالدات وهكذا نزعت به إلى خلائف جده الفاروق – رضي الله عنه – فرحمها الله ورضي عنها وعن ولدها.

يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد. ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر، هذا أشج بني مروان الذي يملك .

قال أبو خيثمة : حدثنا المفضل بن عبد الله، عن داود بن أبي هند قال: دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب – يعني بابا من أبواب المسجدبالمدينة - فقال رجل من القوم: بعث إلينا هذا الفاسق بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن، وزعم أنه يكون خليفة بعده، ويسير بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال: فقال لنا داود: فوالله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً .

وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه، كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً .

ومنذ ذلك الحين أطلق على عمر أشج بني مروان أو بني أمية أو أشج قريش .

قال أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، ثنا عبد الله ابن دينار، قال: قال ابن عمر: يا عجباً !! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر، قال: وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر، قال: وكان بوجهه أثر، فلم يكن هو، وإذا هو عمر بن عبد العزيز، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وقال البيهقي: أنبأ الحاكم، أنبأ أبو حامد بن علي المقري، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا أحمد بن إبراهيم، ثنا عفان، ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق، عن جويرية بنت أسماء، عن نافع، قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شجان يلي فيملأ الأرض عدلاً. قال نافع من قبله: ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز .

ورواه مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن نافع، وقال: كان ابن عمر يقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً؟

قال وهيب بن الورد: بينما أنا نائم رأيت كأن رجلاً دخل من باب بني شيبة وهو يقول: يا أيها الناس !ولي عليكم كتاب الله. فقلت: من؟ فأشار إلى ظفره، فإذا مكتوب عليه عمر، قال: فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز .

وقال بقية، عن عيسى بن أبي رزين، حدثني الخزاعي، عن عمر بن عبد العزيز، أنه رأى رسول الله ﷺ في روضة خضراء فقال له: (إنك ستلي أمر أمتي فزع عن الدم فزع عن الدم، فإن اسمك في الناس عمر بن عبد العزيز، واسمك عند الله جابر) .

وقال أبو بكر بن المقري: ثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحراني، ثنا أيوب بن محمد الوزان، ثنا ضمرة بن ربيعة، ثنا السري بن يحيى، عن رياح بن عبيدة، قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده، فقلت في نفسي: إن هذا شيخ جاف، فلما صلى ودخل لحقته فقلت: أصلح الله الأمير من هذا الشيخ الذي أتكأته يدك؟ فقال: يا رياح رأيته قلت: نعم ! قال: ما أحسبك يا رياح إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو عمير، ثنا ضمرة، عن علي بن خولة، عن أبي عنبس، قال: كنت جالساً مع خالد بن يزد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد، فقال: هل علينا من عين؟ فقال أبو عنبس: فقلت: عليكما من الله عين بصيرة، وأذن سميعة، قال: فترقرت عينا الفتى. فأرسل يده من يد خالد وولى، فقلت: من هذا ؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخي أمير المؤمنين، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى. قلت: قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شيء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم، وكان ينظر في النجوم والطب.

وقد ذكرابن الجوزي: أن سليمان بن عبد الملك -رحمه الله- لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوب ذلك رجاء فكتب سليمان العهد في صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة، ثم انصرفوا، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة، ثم فتحها فقرأها عليهم، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة .

وقد اختلف العلماء في مثل هذا الصنيع في الرجل يوصي الوصية في كتاب ويشهد على ما فيه من غير أن يقرأ على الشهود. ثم يشهدون على ما فيه فينفذ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم، قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري: أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز، وروى ذلك عن سالم بن عبد

الله. وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومي ومكحول، ونمير بن أوس وزرعة بن إبراهيم، والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، ومن وافقهم من فقهاء الشام .

وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه وقضاة جنده، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم .

وروى عن قتادة وعن سوار ابن عبد الله وعبيد الله بن الحسن ومعاذ بن معاذ العنبري فيمن سلك سبيلهم، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه. قلت: وقد اعتنى به البخاري في صحيحه.

قال المعافى: وأبي ذلك جماعة من فقهاء العراق، منهم إبراهيم وحماد والحسن، وهو مذهب الشافعي وأبي ثور، قال: وهو قول شيخنا أبي جعفر، وكان بعض أصحاب الشافعي بالعراق يذهب إلى القول الأول، قال الجريري: وإلى القول الأول نذهب .

نشأة عمر بن عبد العزيز

نشأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في المدينة المنورة، فلما شب وعقل وهو غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: « يا أمه، أنا أحب أن أكون مثل خالي »، يريد عبد الله بن عمر، فتؤفف به ثم تقول له: « اغرب، أنت تكون مثل خالك »، وتكرر عليه ذلك غير مرة .

فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها، فقال لها» :يا ابنة أخي، هو زوجك فالحقي به»، فلما أرادت الخروج قال لها: «خلفي هذا الغلام عندنا (يريد عمر) فإنه أشبهكم بنا أهل البيت»، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، فقال لها: «وأين عمر؟»، فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلِّماً.

وهكذا تربى عمر بين أخواله بالمدينة المنورة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة.

كان عمر عبد العزيز رضي الله عنه يعيش في أسرة الملك والحكم، حيث النعيم الدنيوي، وزخرف الدنيا وبهائجها، وكان رضي الله عنه يتقلب في نعيم يتعاظم كل وصف، ويتحدى كل إحاطة.. إنّ دخله السنوي من راتبه ومخصصاته، ونتاج الأرض التي ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار.. وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة، فينتظم موكبه خمسين جملاً تحمل متاعه .

وكان يلبس أبهى الثياب وأغلاها، ويضمخ نفسه بأبهج عطور دنياه، حتى إنه ليعبر طريقاً ما، فيعلم الناس أنه عبره، وكان رضي الله عنه يتأنق في كل شيء، حتى المشية التي انفرد بها وشغف الشباب بمحاكاتها وعرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ"المشية العمرية" .

ثم إنه رضي الله عنه مع هذا كله كان فيه نبوغ مبكر فلم تنسه هذه الدنيا وزخرفها الله تعالى والدار الآخرة، بل إنه رضي الله عنه كان فيه حب للعلم وأهله .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه منذ صغره شديد الإقبال على طلب العلم، وكان يحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح، زاخرةً بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب .

وقيل في صفاته: كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة، وقد خطه الشيب، وقيل في صفته: أنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيفاً، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية .

وقد اتصف رضي الله عنه بصفات القائد الرباني الميداني، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله عز وجل وعظمته، وإيمانه بالقدر خير وشره دون تأويل أو تعطيل، وخوفه من الجليل والعمل بالتنزيل وكان صاحب علم غزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، والورع وقبول النصيحة، صاحب مشورة وذا حلم وصبر، وعلو للهمة، والحزم، والإدارة

القويـة، والعـدل، والقـدرة علـى حـل المشـكلات، وقدرتـه علـى التخطـيط والتوجيـه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات المؤهلة لسيادة العالم وليس لأمة فحسب .

أهمية البيئة الصالحة

إن البيئة الصالحة تنتج أولاداً صالحين، وإن الاهتمام بتربية الأولاد والاعتناء بهم، هو الذي يوجههم إلى الوجهة التي سيكونون عليها في مستقبل الأمر غالباً، ولذلك فإن العناية منذ الصغر تنشئ رجال المستقبل، وإن الاهتمام بالبيئة هو الذي يصلح الأحوال بإذن الله، وقد كان فيما سلف سنة قد اختفت، وهي المؤدبون، كانوا يعتنون بتأديب الأولاد وتعليمهم، ومؤدب الولد يأخذه بحفظ القرآن وشيء من الحديث والتربية على حسن الخلق والآداب الشرعية، فينشأ عف اللسان، وينشأ محباً للدين والعلم والصالحين، وإن الأب، ولو كان مشغولاً ينبغي أن يتعاهد ولده ولو من بعد، لرجل صالح يتعاهده ويلزمه الصلوات، ويؤدبه.

منذ نعومة أظفار عمر حرص والده عبد العزيز رحمه الله على أن ينشأ ولده على الصـلاح والاستقامة فأختـار لـه البيئـة الخصبة الـتي سيترعرع فيها فكانـت هـي مدينـة رسول الله ﷺ حيث يعيش بعض من بقي من الصحابة رضي الله عنهم .

وقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة. وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وكان رحمه الله فصيحا مفوها.

وجمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القرآن وهو صغير وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ.

ثم كان للبيئة الاجتماعية المحيطة دور فعال ومهم في نشأة شخصية عمر بن عبد العزيز،حيث عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة. فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة. فقد حدث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي ﷺ. وأمَّ بأنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من هذا الفتى.

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك. قال: ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى – يعني عمر بن عبد العزيز – حين كان على المدينة.

قالوا: وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة أنه كان يسبح في الركوع والسجود عشرا عشرا.

هذه العوامل والظروف ساهمت في بناء شخصية عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بناءً صالحاً، كما أن للإقامة بالمدينة آثار نفسية عظيمة، ومعان إيمانية، وتعلق روحي كبير، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه العلمية والتربوية .

الإشارة النبوية إلى خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

أفرد ابن كثير رحمه الله في كتابه (البداية والنهاية) فصلاً كاملاً عن الإشارة النبوية إلى خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ومن ذلك حديث أبي إدريس الخولاني عن حذيفة قال: سألت رسول الله – ﷺ – هل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير، قال:

نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه، قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي يعرف منهم وينكر. فحمل البيهقي وغيره هذا (الخير الثاني) على أيام عمر بن عبد العزيز.

وروي عن الحاكم عن الأصم عن العباس بن الوليد بن مرثد عن أبيه قال: سئل الأوزاعي عن تفسير حديث حذيفة حين سأل رسول الله – صلى الله عليه و سلم – عن الشر الذي يكون بعد ذلك الخير، فقال الأوزاعي هي الردة التي كانت بعد وفاة رسول الله – ﷺ–، وفي مسألة حذيفة: فهل بعد ذلك الشر من خير؟، قال: نعم وفيه دخن. قال الأوزاعي: فالخير الجماعة، وفي ولاتهم من يعرف سيرته وفيهم من ينكر سيرته..

وروى أبو داود الطيالسي عن داود الواسطي عن حبيب بن سالم عن نعمان بن سالم عن حذيفة قال: قال رسول الله – ﷺ–: إنكم في النبوة ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها لكم إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

قال: فقدم عمر بن عبد العزيز ومعه يزيد بن النعمان، فكتبت إليه أذكره الحديث، وكتبته إليه أقول: إني أرجو أن تكون أمير المؤمنين بعد الخيرية. قال: فأخذ يزيد الكتاب فأدخله على عمر فسر به وأعجبه.

وقال نعيم بن حماد حدثنا روح بن عبادة عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قال عمر بن عبد العزيز: رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعنده عمر وعثمان وعلي. فقال لي: ادن، فدنوت حتى قمت بين يديه، فرفع بصره إلي وقال: أما إنك ستلي أمر هذه الأمة وستعدل عليهم.

وفي حديث أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، قال كثير من الأئمة إنه عمر بن عبد العزيز.

وروى نافع عن ابن عمر قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شين يلي فيملأ الأرض عدلاً. قال نافع من قبله ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز.

قال ابن كثير: قلت: وقد ولي عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك سنتين ونصفاً فملأ الأرض عدلاً وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي صدقته.

النشأة الايمانية على أيدي كبار علماء المدينة

عاش عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في زمن ساد فيه مجتمعُ التقوى والإقبال على طلب العلم، فقد كان عدد من الصحابة لا يزالون بالمدينة، فقد حدث عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي محمد، كما أمّ بأنس بن مالكفقال: « ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى » .

تربى عمر بن عبد العزيز وتعلم على أيدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين؛ ثمانية منهم من الصحابة وخمسة وعشرون من التابعين.

فقد اختار عبد العزيز (والد عمر) صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر، فتولى صالح تأديبه، وكان يُلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر عن الصلاة مع الجماعة، فقال له صالح بن كيسان: « ما يشغلك؟ »، قال: «

كانت مرجّلتي (مسرحة شعري) تسكن شعري »، فقال: «بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟»، فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه.

ومما يذكر من بكائه حال صغره وخوفه: أنه لما حج أبوه اجتاز به في المدينة، فسأل صالح عنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام.

وقد بكى يوماً وهو غلام صغير فأرسلت إليه أمه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت، فبكت أمه حين بلغها ذلك .

وكان عمر رضي الله عنه يحرص على التشبه بصلاة النبي محمد أشد الحرص، فكان يُتمُّ الركوع والسجود ويخفِّف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبّح في الركوع والسجود عشراً عشراً.

ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً، ونهل من علمه وتأدب بأدبه وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: « لَمجلسٌ من الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إليّ من ألف دينار »، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: « لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا ». وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة، قال عنه الزهري: «كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذي أنزلت من عنده السور   والحمد لله أمّا بعد يا عمر

إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبرعلى القدر المحتوم وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرٌّ به إلا سيتبع يوماً صفوه كدر

ومن شيوخه أيضاً سعيد بن المسيب، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر. ومنهم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: « كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به ».

وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على الخليفة سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: «ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه يدخل فيها على أمير المؤمنين؟»، وعلى المتكلم ثياب سريَّة لها قيمة، فقال له عمر: « ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك » .

كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير في نصح الخلفاء وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، إذ يحتل عمر مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عمه عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكّره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها:

« أما بعد، فإنك راعٍ، وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: كل راعٍ مسؤول عن رعيته، (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا) (النساء: ٨٧)» .

ويقال بأن عبد الملك قد ولّى عمر بن عبد العزيز على "خناصره" ليتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر، ويقال إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه عليها. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه عبد الملك وحزن عليه حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: «يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله راعني وهالني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك» .

هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته. ومن الدروس المستفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة، وهي الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

مكانته العلمية

ثم انتقل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من مرحلة التلقي والسماع إلى التحديث والرواية بعد أن رسخت قدمه في العلم، وتتلمذ على أئمة الحديث والفقه. وكان ممن روى عن عمر بن عبد العزيز من التابعين: أبو بكر بن حزم، ورجاء بن حيوة، والزهري، وأيوب السختياني وغيرهم.

كان من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام. وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمّنا منه. وقال ميمون بن

مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء. وقال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري .

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس، وهي رسالة قصيرة، وفيها يحتج الليث – مراراً – بصحة قوله بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله .

ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل. وجعلوا له وصفاً وهو (عمر الصغير) ليتميَّز به عن جدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم؛ ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات .

وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكره في كتابه (الموطأ) محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه. وأما الحنابلة فكذلك يذكرونه كثيراً. وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز .

وبعد مرحلة طلب العلم استدعاه عمه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دمشق حاضرة دولته، وزوّجه ابنته فاطمة، وكان الخليفة عبد الملك بن مروان من الحصافة ليدرك أن ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز هو خير زوج لبنته وفلذة كبده، فعرضها عليه

قائلاً له: قد زوجك أمير المؤمنين ببنته فاطمة.. فقال عمر: وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزيت وكفيت .

ثم عيّنه واليًا على إمارة صغيرة من أعمال حلب، وظل واليًا عليها حتى تُوفي عبد الملك بن مروان سنة (٨٦هـ- ٧٠٥م) .

أخرج أبو نعيم بسند صحيح عن رياح بن عبيدة قال: خرج عمر ابن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده فقلت في نفسي: إن هذا الشيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت أصلح الله الأمير من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك قال يا رياح رأيته قلت: نعم قال ما أحسبك إلا رجلا صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها.

وأخرج أيضاً عن أبي هاشم أن رجلا جاء إلى عمر بن عبد العزيز فقال رأيت النبي ﷺ في النوم وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فإذا رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك: يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر فاستحلف له عمر بالله لرأيت هذا فحلف له فبكى عمر.

الفصل الثاني

الطريق إلى خلافة المسلمين

ولّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك على إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١ هـ، فصار والياً على الحجاز كلها، ثم عُزل عنها وانتقل إلى دمشق .فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة قرّبه وجعله وزيراً ومستشاراً له، ثم جعله ولي عهده، فلما مات سليمان سنة ٩٩ هـ تولى عمر الخلافة.

في عهد الوليد بن عبد الملك

إمارته على المدينة المنورة

يُعدّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان له أثر كبير في نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عبد الملك يجلّه ويُعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه، ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكّره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وقد جاء فيها: أما بعد: فإنك راعٍ، وكلّ مسؤول عن رعيته .

حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: كل راعٍ مسؤول عن رعيته. (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) (النساء:٨٧) .

ويُقال بأن عمر بن عبد العزيز ولاّه عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه على خناصره، وهناك من رجح القول، وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعني وهالني، فعاهدت الله ألاّ أعمل بمثل عمله إن وُليت، وقد اجتهدت في ذلك .

في ربيع الأول من عام ٨٧ هـ، ولّى الخليفة الوليد بن عبد الملك عمرَ إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١ هـ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها. واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة؛ لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يُخرجه للناس في المدينة .

فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة، وفرح الناس به فرحاً شديداً، وقام عمر بتكوين مجلس للشورى بالمدينة سمي بـ"مجلس فقهاء المدينة العشرة"، فعندما جاء الناس للسلام على أمير المدينة الجديد وصلّى بهم، دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم :عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني» .

قال وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدِينة رسولا إلى سعيد بن المسيب يسأله عن مسألة وَكان سعيد لا يأتي أَمِيرا ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال هل الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه (من وقته) فلما رآه قال له عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حَتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإنا لم نرسله ليدعوك ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك ولم ير سعيد أنه يسعه التخلف عَنه .

وفي إمارته على المدينة المنورة وسع المسجد النبوي بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مئتي ذراع في مئتي ذراع، وزخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع أنه كان يكره زخرفة المساجد.

الحادث المؤسف في ولاية عمر

ظلّ عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة حوالي ست سنوات كان فيها موضع الرضا من أهلها وعلمائها، وقد أقام الحج أثناء ولايته عدة مرات، وكان عمر يعتبر فترة ولايته على المدينة من أسعد أيام حياته، ولم يعكر صفو أيامه هذه إلا حادثة خبيب بن عبد الله بن الزبير؛ إذ تعرض عمر رضي الله عنه لحادث مؤسف في أثناء ولايته على المدينة؛ مما أثر فيه .

قال علماء السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي ﷺ أنه قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وهو حديث ضعيف، فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز - واليه على المدينة - يأمره بجلده مائة سوط، وبحبسه، فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة فكز، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير، واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجّى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً فقال لي: ما وراءك فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه

يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر فيقول: كيف بخبيب، ولم يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات ، ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته . وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة .

ذكر ابن الجوزى: أن حَبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدْرَ الذي يستحقه، فكلمه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرَّ، فقال: مزاحم (مغضبًا): يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة وفي صبيحتها تقوم الساعة.. يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع "قال الأمير قال الأمير قال الأمير"، قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء .

وفي سنة ٩١هـ، أي في أثناء إمارته على المدينة المنورة، حج الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة.

عزله عن إمارة المدينة

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة، ففي سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: « إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك، فتنحّ عن المدينة».

وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه، حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: «إن من قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن»، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر عبد العزيز.

وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به.

قال الإمام مالك: لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة – يعني في سنة ثلاث وتسعين – وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة – يعني أن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد – وينصع طيبها .

قلت: خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له: السويداء حينا، ثم قدم دمشق على بني عمه. قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز، يقول: خرجت من المدينة وما من رجل أعلم مني، فلما قدمت الشام نسيت .

انتقاله إلى دمشق

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي، ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: «يا مزاحم، نخشى أن نكون من نفت المدينة»، يشير بذلك إلى قول النبي محمد ﷺ: «ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»

وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته في دمشق بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها . ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة، يهمهم إخضاع الناس بالقوة وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان يقول: «الوليد بالشام، والحَجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف(أخو الحجّاج) في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، امتلأت والله الأرض جوراً» .

نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل سلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادي الأمر في استصدار قرار يمنع أي والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم

أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلْني عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم، فمكث أياماً ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون، ويكتبون: إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يحرج من ذلك إلا الحجّاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأُخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم إن الحجّاج أرسل إلى أعرابي حروري - من الخوارج - جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول في يزيد؟ فسبّه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجْوَرُهم حَين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني، وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال ظالم جبّار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبّار عاتٍ. قال فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام، أردْ عليّ عمر، فردّه عليه فقال: يا أبا حفص

ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله -عز وجل- أو تدركه منيته، فقال الوليد شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضباً، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد رادتت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك، وهكذا احتار الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأي عمر في الحد من سرف الحجّاج وأمثاله في القتل .

نصْحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه

ونذكر هنا ماورد من آخر مواقفه التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع أخيه سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، وقد أطاعه كثير من الأشراف طوعاً وكرهاً، فوقف عمر رضي الله عنه من ذلك موقفاً حازماً؛ فامتنع ولم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين، إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك، وقال :" لسليمان في أعناقنا بيعة ". وصمم- فعرفها له سليمان - .

وغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطيّن عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ففتح عنه بعد ثلاث، وقد ذبل ومالت عنقه .

في عهد سليمان بن عبد الملك

كان سليمان بن عبد الملك رحمه الله من أمثل الخلفاء في بني أمية، نشر عَلَم الجهاد، وجهّز مائة ألف برّاً وبحراً، فنازلوا القسطنطينية، واشتد القتال والحصار عليها أكثر من سنة .

لم ينسي سليمان رحمه الله فعل عمر رضي الله عنه، فحفظ الجميل له وجعله كالوزير، وجعله فيما بعد خليفة من بعده، وفي نفس الوقت انتقم من قادة الفتوح الذين أيدوا الوليد بن عبد الملك حين أراد عزله عن ولاية العهد. ومن حسن حظ الحجاج أنه مات قبل تولي سليمان الخلافة، ولكن سليمان انتقم من آل الحجاج وبقية القادة مثل محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وعبد العزيز بن موسى بن نصير .

واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مستشاراً ووزيراً وقال له: إنا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره فما رأيت من مصلحة العامة فمر به، فليكتب .

و تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بقدر كبير، فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة قرّب عمرَ وأفسح له المجال واسعاً، حيث قال: «يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى (ولم يكن بتدبيره علم) فما رأيتَ من مصلحة العامة فمر به»، وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته وسفره. وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: «ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني» .

وقال في موضع آخر: « يا أبا حفص، ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي »، وقد كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحَجّاج وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة خالد القسري البجلي،ووالي المدينة عثمان بن حيان، والأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فقد أورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس عن رأي عمر: إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها. وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: «مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها» .

وقدِم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: « كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ »، قال: « رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم ». وخرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر:

« إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ »، فقال سليمان: « خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها »، فقال عمر: « أوخير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ »، قال: « وما هو؟ »، قال: « قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك »، فجلس سليمان فردّ المظالم.

وأقبل سليمان بن عبد الملك ومعه عمر على معسكر سليمان، وفيه الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: «ما تقول يا عمر في هذا؟»، قال: «أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عن ذلك كله»، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غرابٌ قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة، فقال له سليمان: « ما تقول في هذا يا عمر؟ »، فقال: « لا أدري »، فقال: «

ما ظنك أنه يقول؟ »، قال: كأنه يقول: « من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ »، فقال له سليمان: « ما أعجبك! »، فقال عمر: « أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه » .

ولما وقف سليمان وعمر بعرفة، جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: « هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسؤول عنهم غداً »، وفي رواية: « وهم خصماؤك يوم القيامة »، فبكى سليمان وقال: « بالله أستعين » .

وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام: كذبت، فقال: تقول كذبت؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر، فلم يمكنه سليمان، ثم بعث إليه فصالحه وقال: له ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي .

وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته، يَحوطه بنصحه ويشاركه مسؤولياته.

مبايعته بالخلافة

قال ابن عبد الحكم: " وكان عمر بن عبد العزيز أعظم أموي ترفها وتملكا غذي بالملك، ونشأ فيه، لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه، ويمشي مشية تسمى "العمرية" فكان الجواري يتعلمنها من حسنها، وتبختره فيها، وأنه ترك كل شيء كان فيه لما استخلف غير مشيته، فإنه لم يستطع تركها، فربما قال لمزاحم: ذكرني إذا رأيتني أمشي فيذكره فيخلطها، ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها".

وبلغ عمر من رفاهيته قبل الخلافة أن الناس كانوا ينتظرون يوم أن تؤخذ ملابسه إلى المغسل، لتغسل ملابسهم بعد ملابسه حتى ينالها الكثير مما نزل منها من الطيب في الماء .

لكنه ترك كل هذا لحظة تولى الخلافة، ورأى أنه مسئول مسئولية كاملة أمام الله عن الدين وعن العباد بادئا بنفسه وأهله، راجيا أن ينجو من العقاب في آخرته.

اجتمع لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من الصفات والمواهب ما جعله خليفة قديرًا نادر المثال، ينهض بمسئوليته على خير وجه، وشاء الله أن يعتليَ منصب الخلافة والدولة في أوج قدرتها وعظمتها، بعد أن مرّت بفترات عاصفة، وأوقات حَرِجة، وفتن مظلمة، وثورات مدمرة، لكن الدولة تجاوزت تلك المخاطر، وفرضت هيبتها وسلطانها؛ فعاد الأمن والاستقرار، واستؤنف الفتح الإسلامي، وضمت الدولة إلى أراضيها بقاعا شاسعة في الشرق والغرب، وحسبك أن تعلم أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولي منصبه وجيوش مسلمة بن عبد الملك تحاصر القسطنطينية عاصمة

الدولة البيزنطية؛ فكان استقرار الدولة من أسباب ظهور أثر إصلاحات عمر، وسياسته الحكيمة الراشدة، وإدارته العادلة.

وكان عمر إداريًا عظيمًا، إلى جانب صلاحه وتقواه، وزهده وورعه، وهو ما امتلأت به كتب السِّيَر والتراجم حتى كادت تطغى هذه الأخبار على ملامح شخصيته الثرية بجوانبها الأخرى .

اقترح الفقيه رجاء بن حيوة الكندي على الخليفة سليمان بن عبد الملك في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، قال ابن سيرين: " يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز ".

وكان سليمان يريد أن يعهد بعده لابنه أيوب بدلاً من أخيه يزيد بن عبد الملك، ولكن مات ابنه أيوب، وفي النهاية استخلف عمر بن عبد العزيز على أن يكون بعده يزيد بن عبد الملك حتى لا ينقطع الحكم في نسل عبد الملك بن مروان .

وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر، ومنها ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز، ونظر في المرآة فقال: «أنا والله الملك الشاب»، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: «ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح»، فقال سليمان: « كتاب أستخير الله فيه وأنظر، ولم أعزم عليه»، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: «ما ترى في داود بن سليمان؟»، فقلت: «هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت»، قال: «يا رجاء فمن ترى؟»، فقلت: «رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يُذكر»، فقال: «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟»،

فقلت: «أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً»، فقال: «هو على ذلك، والله لئن ولّيته ولم أولِّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده»، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم، قال: « فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به»، قلت: «رأيك»، فكتب بيده:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

وختم الكتاب، فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: «اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي ومُرهم فليبايعوا من وليت». ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: «سمعنا وأطعنا لمن فيه»، وقالوا: «ندخل فنسلم على أمير المؤمنين»، قال: «نعم»، فدخلوا فقال لهم سليمان: «هذا الكتاب (وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة) هذا عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب»، فبايعوا رجلاً رجلاً، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء ... قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يُدخل على الخليفة أحداً. فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق فقلت: «بايعوا»، قالوا: «قد بايعنا مرة ونبايع أخرى!»، قلت: «هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم»، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً، فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: «قوموا إلى صاحبكم فقد مات»، قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: «لا نبايعه

أبداً»، قلت: «أضرب والله عنقك، قم فبايع»، فقام يجر رجليه. وأخذت بضبعي عمر فأجلسته على المنبر، وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه، فلما انتهى هشام إلى عمر قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، فقال عمر: «نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي لكراهتي له» .

توفي سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو مقيم بمرج دابق شمال مدينة حلب، وقيل: بذات الجنب يتابع الأخبار عن الجيش أثناء حصار القسطنطينية في(يوم الجمعة ١٠ من صفر ٩٩ هـ) .

يقول ابن كثير في البداية والنهاية " تعهد ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت؛ فمات هناك فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله".

كانت خلافته رحمه الله سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وغسل سليمان وكفن وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ودفن. وكان نقش خاتمه: "آمنت بالله مخلصا" .

ولما رجع من جنازة سليمان أتي بمراكب الخلافة ليركبها، فامتنع من ذلك، وأنشأ يقول : فلولا التقى ثم النهى خشية الردى لعاصيت في حب الصبا كل زاجر قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى له صبوة أخرى الليالي الغوابر .

ثم قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله، قدموا إلي بغلتي . ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية في من يريد، وكانت من الخيول الجياد المثمنة، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال .

قالوا: فلما رجع من الجنازة، وقد بايعه الناس، واستقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: ما لك هكذا مغتما مهموما، وليس هذا بوقت هذا ؟ فقال: ويحك ! وما لي لا أغتم، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه، أن أؤديه إليه، كتب إلي في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب . قالوا: ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال، رحمها الله . وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين . فأنشأ يقول:

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامه
ذهب الفراغ فلا فرا غ لنا إلى يوم القيامه

قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

روى أبو نعيم وغيره: أن عمر بن عبد العزيز لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من المقبرة؛ سمع للأرض هدَّةً أو رجَّة، فقال: ما هذه؟ قيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قربت إليك لتركبها، فقال: مالي ولها، نحوها عني وقربوا إلى بغلتي، فقربت إليه بغلته فركبها، فجاءه صاحب الشُّرَطِ يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنح عني! إنما أنا رجل من المسلمين .

بويع عمر بالخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك وهو ابن عمه، فتسلم الخلافة سنة ٩٩هـ.

خطبته الأولى بعد استخلافه

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : - لما ولّيَ عمر ابن عبدالعزيز الخلافة جاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله، فقال له عمر: ما لي ولك؟ تنح عني إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه، فقال : يا أيها الناس إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي مني فيه ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون، فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك، وهكذا أراد عمر أن يطبق مبادئ الإسلام في اختيار الحاكم فأعلن أمام المسلمين أنه قد خلع ما في أعناقهم من بيعة، وترك الأمر شورى بينهم، لتكون البيعة إختيارا لا جبرا كما فعل الخلفاء من قبله .

فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وصعد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه المنبر وقال في أول لقاء له مع الأمة بعد استخلافه:

« أيها الناس، إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم » . فصاح الناس صيحة واحدة: « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولِّ أمرنا باليمن والبركة»، وهنا شعر أنه لا مفر له من تحمل مسؤولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة:

أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفّذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً.

أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه.

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات...

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أيها الناس! إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنته التي عرضها السماوات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى وأتقى وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وشقاوة بسعادة. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفه بعدكم الباقون؟

ألا ترون أنكم تشيعون في كل يوم غادياً رائحاً إلى الله تعالى قد قضى نحبه وانقطع أمله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد قطع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟

هذه أول كلمات لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخليفة العادل الذي أقبلت عليه الدنيا بخيلها وخيلائها فأعرض عنها رغبة في النعيم المقيم، ورهبة من الجحيم وحبا في مجاورة رب العالمين، كان من أحسن الناس سيرة، وأطيبهم سريرة!

ثم أردف يقول: وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال:

يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن، فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ ثم نزل.

وكان من هذه القواعد والأسس قاعدةٌ كان لها الأثر الكبير في تكوين شخصيته وانطلاقته المباركة، ألا وهي الزهد في الدنيا، قاعدة التجرد المطلَق، والنزاهة في أروع صورها!

وهكذا عُقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ .

ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت، وأدخل أثمانها في بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع؟ قال: يا بني أقيل، قال: تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها، فقال: إني سهرت البارحة في أمر سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم،

فقال له ابنه: ومن لك أن تعيش إلى الظهر؟ قال: ادن مني أي بني، فدنا منه فقبل بين عينيه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني. ثم قام وخرج وترك القائلة، وأمر مناديه فنادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال: ما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي، والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه، ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت في يده أو في يد غيره، حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما كان في أيديهم بغير استحقاق .

فكانت أولى خطوات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نحو الحكم الرشيد .

وفود التهنئة

تولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة، فقدمت عليه الوفود من كل مكان تبايعه وتهنئه، ولبيان حاجاتها، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام هاشمي للكلام، وكان حديث السن، فقال عمر رضي الله عنه -:لينطلق من هو أسن منك .

فقال الغلام:- أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك.

فقال عمر:- صدقت، قل ما بدا لك .

فقال الغلام:- أصلح الله أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منّ علينا بك، ولم يقدمنا إليك رغبة أو رهبة، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرغبة فقد أمنا جورك بعدلك .

فقال عمر: عظني يا غلام، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الأقدام فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك، فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت . فقال عمر: كم عمر الغلام، فقيل له: ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد

الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهم، فأثنى عليه خيراً، ودعا له، وتمثَّل قائلاً: تعلم فليس المرء يولد عالماً

وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

فإن كبير القوم لا علم عنده

صغير إذ التفت عليه المحافلُ .

رسالة الإمام الحسن البصري رحمه اللّه الى أمير المومنين عمر بن عبدالعزيز رضي اللّه عنه في صفة الإمام العادل

كان عمر رضي الله عنه كثيرا ما يحب أن يستمع الى موعظة من مواعظ العلماء ليعتبر، وكانت مواعظ الحسن البصري رحمه الله تروق له، وكان كثيرا ما يدعو للحسن البصري فيقول: رحم الله الحسن، فانّه من الاسلام بمنزل ومكان.

لما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة كتب إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: "اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفت كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقرّ. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين

فيما ملّكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله. و اعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. و أعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا. فتزود له ما يصحبك (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ .وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ .وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) (عبس:٣٤-٣٦) وذكر يا أمير المؤمنين (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) (العاديات:٩-١٠)، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله في مجمع من الملائكة النبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال ابن القيم: ذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري كتب إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، إنما أُنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تُذل من أعزها وتُفقِر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرَّارة الخدَّاعة الخيَّالة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وختلت بآمالها وتشوفت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه فعظمت عليها ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفَوت، وعاشق لم ينل منها بغيته فعاش بغصته وذهب بكمده ولم يدرك منها ما طلب ولم تسترح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر، فمالها عند الله قدر ولا وزن ولا نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغترارا، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه، وقال الحسن أيضا : إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها

وهذا باب واسع، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها، ولما كانت هي أكبر همّ من لا يؤمن بالآخرة ولا يرجو لقاء ربه كان عذابه بها بحسب حرصه عليها وشدة اجتهاده في طلبها، وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق فان في حب معشوقه وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفي له ويهجره ويصل عدوه فهو مع معشوقه في أنكد عيش يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء كثير الجفاء كثير الشركاء سريع الاستحالة عظيم الخيانة كثير التلون لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه ولا يجد عنه سبيلا إلى سلوى تريحه ولا وصال يدوم له، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده .

حدثنا أبوعاصم، عن شبيب بن بشر، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى فقهاء العراق أن يأتوه فمرض الحسن البصري بفتق في بطنه وبدلا من أن يذهب إليه مع فقهاء العراق كتب إليه يقول:

"يا أمير المؤمنين إن استقمت استقاموا وإن ملت مالوا.يا أمير المؤمنين لو أن لك عمر نوح وسلطان سليمان ويقين ابراهيم وحكمة لقمان ما كان لك بد من أن تقتحم العقبة أو النار من أخطأته هذه دخل هذه".

فلما أتاه الكتاب فوضعه على عينيه وبكى ثم قال: "كيف لي بعمر نوح ويقين ابراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان ؟ ولو قلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين" .

وأيضا من مواعظ الحسن البصري له

الموعظة الأولى: أما بعد يا امير المؤمنين! فكن للمثل من المسلمين أخا، وللكبير ابنا، وللصغيرأبا، وعاقب كل واحد على قدر جسمه، ولا تضربنّ لغضبك سوطا واحدا فتدخل النار، واعلم أنّ الهول الأعظم، ومفظعات الأمور أمامك لم يقطع منها بعد، وانه لا بد والله لك من مشاهدة ذلك ومعينته اما بالسلامة والنجاة منه، واما بالعقاب.

الموعظة الثانية: أما بعد، يا أمير المؤمنين! ان استقمت استقاموا، وان ملت مالوا، ولو كان لك عمر نوح، وملك سليمان، ويقين ابراهيم، وحكمة لقمان، فانّ أمامك هول الموت، ومن وراءه داران، ان أخطأتك هذه، صرت الى هذه، وما كان لك يد من أن تقتحم العقبة، ومن وراء العقبة الجنة والنار، من أخطأته هذه، دخل هذه.

الموعظة الثالثة: سلام عليك: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل.

موعظة طاووس رحمه الله: سلام عليك يا أمير المؤمنين! فانّ الله عزوجل أنزل كتابا، وأحل فيه حلالا، وحرم فيه حراما، وضرب فيه أمثالا، وجعل بعضه محكما وبعضه متشابها، فأحل حلال الله، وحرم حرام الله، وتفكر في أمثال الله، واعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه، والسلام عليك.

موعظة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي رحمهم الله:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة، دخل عليه سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، وهو مكتئب حزين، فأقبل على أحدهما فقال عظني، فوعظه سالم رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين! ان الله لم يجعل أحدا من خلقه فوقك، فلا ترض

لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك، واجعل الناس أصنافا ثلاثة: الكبير بمنزلة الأب، والوسط بمنزلة الأخ، والصغير بمنزلة الولد، فبر أباك، وصل أخاك، واعطف على ولدك، واعلم أنك لست أول خليفة يموت.

ثم أقبل على محمد بن كعب رحمه الله وقال له عظني؟ فقال: يا أمير المؤمنين! انّ الدنيا عطن مهجور، وأكل منزوع، وعرض بلاء، ومستقر آفات يحيط بها الذل ويفنيه الشكل، لكل فرحة منها ترحة، ولكل سرور منها غرور، وقد رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه، يصبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء.

فبكى عمر رحمه الله وقال: لا حول ولا قوة الا بالله.

موعظة زياد العبد رحمه الله: والله لا ينفعك من دخل الجنة اذا دخلت النار، ولا يضرك من دخل النار اذا دخلت الجنة، فبكى عمر بكاء شديدا حتى أطفأ الجمر الذي على الكانون من كثرة بكاءه.

موعظة خادمه مزاحم رحمه الله: يا عمر بن عبد العزيز! اني أحذرك من ليلة تمخض بالقيامة، في صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر! ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع قال الأمير، قال الأمير.

الفصل الثالث

تنظيم الولايات في عهد الخليفة العادل

سياسته الداخلية

جاءته الخلافة دون أن يسعى لها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان كارها لها إذ أوصى له بها سليمان بن عبد الملك بناء على مشورة من العالم الجليل "رجاء بن حيوة الكندي" الذي كان مقرباً من سليمان يأتمنه ويأخذ برأيه .

وحين آلت الخلافة إليه لم يسر على نهج سلفه سليمان رحمه الله، ولم يقبل على الدنيا واتخذ من سيرة جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلاً يحتذي به ويسير على هديه، فاعتمد على الفقهاء وقربهم إليه، وجعل للقاضي منزلة رفيعة في المشورة وأخذ الرأي، وكانت الدولة في رأيه لا تصلح إلا بأركانها الأربعة: الوالي، والقاضي، وصاحب بيت المال، والخليفة، وفي هذا يقول: " إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا " .

عرف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم في أمور الرعية، من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح وتقليل ما يمكن من المفاسد. كما أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لم يقتصر في شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيّب، والزهري، وغيرهم. وكان لا يقضي في قضاء

حتى يسأل سعيد، ففي المدينة أظهر عمر عبد العزيز رضي الله عنه إجلاله للعلماء وإكباره لهم.

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يختار مستشاريه (بطانته)

إن نجاح الخلافة و الدولة لا تنحصر في الخليفة أو الأمير؛ بل لا بد أن يكون حوله رجال أقوياء أتقياء علماء أمناء، و إن كان تَجَمُّعُ الرجال الأقوياء في الدولة و الخلافة منحصرًا في وجود خليفة و أمير صالح عاقل عالم؛ لأن خبرة معادن الرجال تتوقف على فهم وتقوى الأمير و صلاحه. ثم تحمل مثل هؤلاء الأجلاد في داخل الخلافة و الدولة أمر ثقيل وحمل لا يقدر عليه كل أحد؛ لأن التعامل مع الصقر و الأسد أصعب بكثير من التعامل مع الغراب و الثعلب، فإن الأول لا يرضى إلا بالنفيس، و الثاني يُرْضِيْهِ الخسيس .

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان، بطانةتأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانةتأمره بالشروتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى ". (رواه البخاري) . وما رواه أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حيثُ قَالَ: "مَا مِنْ وَالٍ إلا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وبَطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبَالاً، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ مِن الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا" .

وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قالَ رسولُ اللّه ﷺ: "إِذَا أَرَادَ اللّه بالأمِيرِ خَيْراً، جَعَلَ لَهُ وزيرَ صِدقٍ، إنْ نَسي ذكَّرهُ، وَإن ذَكَرَ أعَانَهُ، وَإذا أَرَاد بهِ غَيرَ ذَلِكَ جعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إنْ نَسي لَمْ يُذَكِّره، وَإن ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ". رواه أَبُو داود بإسنادٍ جيدٍ عَلَى شرط مسلم.

وفي رواية بعضهم " من عصمه الله " بزيادة الضمير وهو مقدر في الرواية الأخرى ، ووقع في رواية الأوزاعيومعاوية بن سلام ومن وقي شرها فقد وقي وهو من الذي غلب عليه منهما ، وفي رواية صفوان بن سليم فمن وقي بطانة السوء فقد وقي ، وهو بمعنى الأول ، والمراد به إثبات الأمور كلها لله تعالى : فهو الذي يعصم من شاء منهم " فالمعصوم من عصمه الله لا من عصمته نفسه " إذ لا يوجد من تعصمه نفسه حقيقة إلا إن كان الله عصمه ، وفيه إشارة إلى أن ثم قسما ثالثا وهو : أن من يلي أمور الناس قد يقبل من بطانة الخير دون بطانة الشر دائما ، وهذا اللائق بالنبي ، ومن ثم عبر في آخر الحديث بلفظة " العصمة " وقد يقبل من بطانة الشر دون بطانة الخير ، وهذا قد يوجد ولا سيما ممن يكون كافرا ، وقد يقبل من هؤلاء تارة ومن هؤلاء تارة ، فإن كان على حد سواء فلم يتعرض له في الحديث لوضوح الحال فيه وإن كان الأغلب عليه القبول من أحدهما فهو ملحق به إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وفي معنى حديث الباب حديث عائشةمرفوعا " من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه "قال ابن التين : يحتمل أن يكون المراد بالبطانتين الوزيرين ويحتمل أن يكون الملك والشيطان " وقال الكرماني " يحتمل أن يكون المراد بالبطانتين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة المحرضة على الخير " إذ لكل منهما قوة ملكية وقوة حيوانية انتهى . والحمل على الجميع أولى إلا أنه جائز أن لا يكون لبعضهم إلا البعض ، وقال الطبري " البطانة : الأولياء والأصفياء " وهو مصدر وضع موضع الاسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع مذكرا ومؤنثا .

تتجلى قيمة المضمون الخِطابي النبوي في التحذيرِ من بطانة السوء، وكأن ولي الأمر إذا عصم من شرها فقد عُصِمَ من الشر كله، ثم في بيان طريقِ ولي الأمر في الاستقامة أو الزيغ، بناء على استجابَتِه لأي من الفريقين. وقد ساق النبي صلى الله

عليه وسلم تلك الحقائق الجليلة بأسلوب بديع موجز، فيه ثلة من الحقائق المذكورة في الأثار السابقة.

ومن ذلك المنهج النبوي علم عمر رضي الله عنه بأن الحمل ثقيل، ولن يقوى عليه بمفرده وأنه لابد من جماعة مؤثرة في القرار السياسي والتي تستمد قوتها وعلاقتها وتفاعلاتها مع دور الاقيادة، فأدنى الصالحين والعباد فجعلهم بطانته، وطلب منهم أن يوفوه ويبصروه بعيوبه، يقول لهم: لقد توليت أمر أمة محمد ﷺ فأعينوني، فكتب له أحدهم: صم هذا اليوم يا عمر ! ولا تفطر حتى تلقى الله.

وكتب له مطرف بن عبد الله : يا أمير المؤمنين! لو كان لك خصم لدود لأعجزك، فكيف بخصمين؟ كيف بثلاثة؟ كيف وخصمك يوم القيامة أمة محمد صلوات ربي وسلامه عليه؟!

جمع سبعة من الصالحين وقال: أنتم جلسائي كل ليلة، لكني أشترط عليكم شروطاً ثلاثة – ليتنا اشترطنا هذه الشروط في مجالسنا، اسمعوا وبلغوا هذه الشروط، فرب مبلغ أوعى من سامع:–

أولها: لا تغتابوا، ولا تعيبوا في مجلسي أحداً.

ثانيها: لا تتحدثوا في الدنيا.

ثالثها: لا تمزحوا وأنا جالس أبداً.

فكانوا يجتمعون بعد العشاء، فيتحدثون في الموت وما بعده، ثم ينفضون عن مجلسهم، وكأنهم انفضوا عن جنازة.

كتب له أثناء خلافته سالم بن عبد الله بن عمر كتاباً شديداً يقول فيه: يا أمير المؤمنين! لقد تولى الملك قبلك أناس ثم صرعوا وهاهي مصارعهم، فانظر إليها لترى،

كانوا ينظرون إلى اللذات بعيون فأكلت، ويأكلون ببطون فنهشت، ويتلفتون بخدود أكلها الدود، فاحذر أن تحبس في جهنم يوم أن يطلق العادلون، فلما قرأ ذلك انهد باكياً قائلاً: اللهم لا تجعلني مع المحبوسين يوم أن يطلق العادلون.

ومن حسن اختياره: أنه قرب الصالحين والعباد، فجعلهم بطانته، وطلب منهم أن يوصوه ويبصروه بعيوبه، يقول لهم: لقد توليت أمر أُمَّة محمد- ﷺ- فأعينوني. جمع سبعة من الصالحين، وقال: أنتم جلسائي كل ليلة، لكني أشترط عليكم شروطًا ثلاثة :

أولها :لا تغتابوا ولا تعيبوا في مجلسي أحدًا.

وثانيها : لا تتحدثوا في أمر الدنيا. وثالثها: ألا تمزحوا وأنا جالس أبدًا. فكانوا يجتمعون بعد العشاء فيتحدثون في الموت وما بعده، ثم ينفضون من مجالسهم وكأنما انفضوا عن جنازة.

استدعى (مزاحمًا) يوم أن تولى الخلافة فقال: يا مزاحم: لقد رأيتك تُصلِّي الضحى في شِعب من الشعاب لا يراك فيه إلا الله فأحببتك في الله، فكن عوني على نفسي، إذا رأيتني ظلمت فخذ بتلابيبي وقل: اتق الله يا ابن عبد العزيز.

وكتب له أثناء خلافته سالم بن عبد الله كتابًا شديدًا يقول فيه: يا أمير المؤمنين لقد تولى الملك قبلك أناس ثم صُرِعُوا وهاهي مصارعهم، فانظر إليها لترى، كانوا ينظرون بعيون إلى اللذات فأُكلت، ويأكلون في بطون فَنُهِشَتْ، ويميدون بخدود أكلها الدود، فاحذر أن تكون مع المحبوسين في جهنم يوم يُطلق العادلون. فلما قرأ ذلك تنهد باكيًا، قائلا: اللهم لا تجعلني مع المحبوسين يوم يُطلق العادلون.

ومن ذلك تضييقه على نفسه، قال أبو أمية الخصمي غلام عمر: دخلت يوماً على مولاتي فغدّتني عدساً، فقلت: كل يوم عدس ؟ قالت: يا بني هذا طعام مولاك أمير

المؤمنين . رأى أمير المؤمنين خادماً له يسحب برذونه، فسأله : كيف حال الناس ؟ فأجابه: كل الناس في راحة إلا أنت وأنا وهذا البرذون .!

ومن نتائج هذا العدل: أن جمعت الزكوات فلم يوجد لها مستحقون، ومن ذلك أيضا: ما روي عن الحسن القصاب أنه قال: رأيت الذئاب ترعى مع الغنم في البادية في خلافة عمر بن عبد العزيز فقلت :سبحان الله ذئب مع غنم لا يضرها؟ فقال الراعي: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس. وقال مالك بن دينار : لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء: من هذا الصالح قام على الناس خليفة ؟ عدله كف الذئاب عن شائنا .

إدارة الدولة

قبل أن يلي عمر رضي الله عنه الخلافة تمرس على الإدارة واليا وحاكما واقترب من صانعي القرار كوزير ومستشار للخليفة ورأي عن كثب كيف تدار شئون الدولة، وراعية مصالحها وخبر الأعوان والمساعدين.

فلما تولى الأمر كان لديه من عناصر الخبرة والتجربة ماتعينه على تحمل المسئولية والقيام بمباشرة مهام الخلافة دون عناء، فهو يعرف الداء والدواء.

تميزت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعدد من المميزات، أهمها:

العدل

قال شعيب: حدثت أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فقال: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم

تحيها فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيراً يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقاً يكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يراق في سببي محجمه من دم أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة؟.

عاش عمر رضي الله عنه عيشة الفقراء، كان يأتدم خبز الشعير في الزيت، وربما أفطر في الصباح بحفنة من الزبيب، ويقول لأطفاله: هذا خير من نار جهنم .

يذهب فيصلي بالمسلمين، فكان أول مرسوم اتخذه، عزل الوزراء الخونة الظلمة الغشمة، الذين كانوا في عهد سليمان، استدعاهم أمامه وقال لشريك بن عرضاء: اغرُب عني يا ظالم رأيتك تُجلس الناس في الشمس، وتجلد أبشارهم بالسياط، وتُجوّعهم وأنت في الخيام والإستبرق .

واستدعى الآخر وقال: اغرب عني والله لا تلي لي ولاية، رأيتك تقدم دماء المسلمين لسليمان بن عبد الملك. ثم عيّن وزراءه وأمراءه من علماء وصُلَحاء المسلمين.

وكتب إلى علماء العالم الإسلامي رسالة، إلى من؟ إلى الحسن البصري، ومُطرّف بن عبد الله بن الشّخِّير، وسالم بن عبد الله بن عمر؛ أن اكتبوا لي كتبًا انصحوني وعِظوني، قبل أن ألقى الله ظالماً، فكتبوا له رسائل، تتقطع منها القلوب، وتشيب لها الرؤوس .

كتب له الحسن: يا أمير المؤمنين صم يومك، لتفطر غدًا. وقال سالم: يا أمير المؤمنين، إنك آخر خليفة تولّى، وسوف تموت كما مات من قبلك. وخوّفوه ووعدوه. وجعل سُمَّاره سبعة من العلماء، يسمرون معه بعد صلاة العشاء، واشترط عليهم ثلاثة شروط:

الشرط الأول: ألا يُغتاب مسلم .

الشــرط الثــاني: ألا يُقـدِّموا لـه شِـكاية في مسـلم، التقـارير المخزيـة في أعـراض المسلمين، وفي كلمات المسلمين، ومجالس المسلمين، أبى أن تُعرض عليه أو تُرفع إليه .

الشرط الثالث: ألا يمزح في مجلسه، إنما يذكرون الآخرة وما قرب منها، فكان يقوم معهم، وهم يبكون، كأنهم قاموا عن جنازة .

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يرى أن المسؤولية تتمثل بالقيام بحقوق الناس، والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة.

وقد أحب الاستزادة في فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة، فكتب إلى الحسن البصري يسأله عن ذلك، فأجابه الحسن:

"الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده؛ يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم في حياته، ويدخرهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدّد وشرّد العيال، فأفقر أهله وفرّق ماله".

وقد أحبّ عمر أهل البيت وأعاد إليهم حقوقهم، وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب» :يا بنت علي، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم، ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي» .

كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية، من خلال زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى ، ويلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يومًا فقال " وددن أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم وأكون أنا أولهم " وفي خطبة أخرى يقول " ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسدَّ من حاجته ما قدرت عليه وما أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بُدِئ بي وبلحمتي الذي يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم " وقد ظهر ذلك عمليا عندما أمر بقضاء دين الغارمين، عندما كتب إليه عامله على الصدقات: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، " فأجاب عمر " لا بدَّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه، فسياسة عمر التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي حاجات يرى أنها أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها .

استطاع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يسيطر على زمام أمور البلاد من مشرقها الى مغربها ومن شمالها الى جنوبها في فترة يسيرة لم تتجاوز الثلاثين شهرا.

فلم يغمض للخليفة رضي الله عنه جفن عن أمور الرعية بل فتح الأبواب على مصرعيها لسماع أخبارهم: فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدًا من الناس

إذا خرج كتابًا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابًا تذكر فيه أنَّ لها حائطًا قصيرًا، وأنه يُقتحم عليها فيُسرق دجاجها، فكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتِ من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيُسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل– وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها– آمره بأن يبني لك ذلك يُحصنه لك مما تخافين إن شاء الله"، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يُسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تُحصنه لها، فلمّا جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصّنه لها " .

قدمت امرأة من العراق على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فلمّا صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا فلجي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تُعالجه، فسلَّمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئًا له بال، فقالت: إنما جئتُ لأُعمِّر بيتي من هذا البيتِ الخرب. فقالت لها فاطمة: إنما خَرِبَ هذا البيت لِعمارة بيوتِ أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئرٍ في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت– وهو يكثر النظر إلى فاطمة– فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيّان فإني أراه يُديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلَّم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له في البيت يُصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه،

فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهنّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال: سمي كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيرًا، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تُولين الحمد أهله، فمري هؤلاء الأربع يفضنّ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها.

خرج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ذات يوم راكبًا ليعرف أخبار البلاد، فقابله رجل من المدينة المنورة فسأله عن حال المدينة، فقال: إن الظالم فيها مهزوم، والمظلوم فيها ينصره الجميع، وإن الأغنياء كثيرون، والفقراء يأخذون حقوقهم من الأغنياء، ففرح عمر فرحًا شديدًا وحمد الله، وهكذا رجل من ولد (زيد بن الخطاب)، يقول: (إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يبحث عمن يعطيه فما يجد، فيرجع بماله، قد أغنى الله الناس على يد عمر).

روى أبو محمد عبدالله بن الحكم المصري (٢١٤هـ) عن يحيى بن سعيد قال: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين .

هذا وعمر نفسه– وهو أمير المؤمنين– لم يكن له في بيته غير الثوب الذي على بدنه، فإذا أراد غسله انتظر حتى يجف، فيعود إلى لبسه، ويخرج به إلى الناس .

وروى معاصره سعيد بن سويد أن رجلاً من القوم لم يطق الصبر على هذا الحال فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست وصنعت!

فنكس عمر رأسه مليًّاً حتى عرفنا أنَّ ذلك قد أساءه، ثم رفع رأسه وقال: إنَّ أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند القدرة .

رحمك الله ياعمر .. أنصفت الفقير .. وأطعمت المسكين .. وكفلت اليتيم.. وفككت الأسير.. فبالله عليك ماذا تركت للحكام من بعدك من حجج!!!.

ردّ المظالم

كان عمررضي الله عنه قد جمع جماعة من الفقهاء والعلماء وقال لهم: "إني قد دعوتكم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، فما ترون فيها؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين : إن ذلك أمرًا كان في غير ولايتك، وإن وزر هذه المظالم على من غصبها"، فلم يرتح عمر رضي الله عنه إلى قولهم وأخذ بقول جماعة آخرين منهم ابنه عبد الملك الذي قال له: أرى أن تردها إلى أصحابها ما دمت قد عرفت أمرها، وإنك إن لم تفعل كنت شريكا للذين أخذوها ظلما. فاستراح عمر لهذا الرأي وقام يرد المظالم إلى أهلها .

نكث عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أعمال أهل بيته وسماها مظالم، وبدأ برد المظالم بنفسه، روى ابن سعد: لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: « إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي»، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم، فقال: « هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض

المغرب »، فخرج منه. وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: «كان سيف أبي محلى بفضة فنزعها وحلاه حديدا» .

وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، فلما استخلف نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غني، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله في السبيل. أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومه، كما أرجع عمر للرجل المصري أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره

. ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين مع شدة حاجة أهله إلى هذا المال، كما أمر مولاه مزاحماً برد المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله . وقال أرطأة بن المنذر: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو اتخذت حرساً واحترزت في طعامك وشرابك فقال: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي.

ففي الخلافة الراشدة لم تكن هناك أموال واقطاعات مخصصة للأسر الحاكمة لعدم وجود أسر حاكمة أصلا، فكانت هذه الأموال تذهب للأمة لأن الأسرة الحاكمة هي الأمة كلها والحاكم من الأمة كلها، إلا أنه بعد تخصيص الحكم في أسرة معينة كمثل حال القيصرية أو الكسروية، وهي هنا الأسرة الأموية وتخصيص أموال وقطائع لهم أضاع على الأمة الكثير من حقوقها والتي تكفى لإطعام ملايين الجائعين من المسلمين لتنفق على بضع مئات من الأسرة الحاكمة والتي أيضا لا تقتصد بل سمتها الإسراف .

والمشكلة الأكبر أنها قد لا ترضى بما لديها حتى تعتدي على ما لدى غيرها عن طريق الظلم والعسف، أدرك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ذلك، فأراد القيام بتجريد الأسرة الحاكمة من كل ما لها من امتيازات تحت مسمى بيت الخلافة، فلما أبوا قال لهم في حزم " إن لله من بني مروان يوما وقيل -ذبحا- وايم الله لو كان ذلك الذبح على يدي" فكفوا، لكنه لم يأخذها أيضا بالعسف ابتداء حتى لا تكون فتنة وهذا هو نعم الفقه، لكنه أيضا له هدف وسيحققه، فيقول لبني مروان وقد رفضوا التنازل " لولا ان تستعينوا علي بمن أطلب الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلا، ولكني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله".

وإذا كان عمر رضي الله عنه قد بدأ بنفسه في رد المظالم، فقد ثنّى ذلك بأهل بيته وبني عمومته من الأمويين، فقد رأى أن الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي محمد ﷺ أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، وفوجيء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها، فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، فأمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين.

هكذا عمل عمر رضي الله عنه على إزالة كل أثر من الآثار التي تراكمت من قبل ولم يكن راضيًا عنها، أو كان يرى أنها تنافي روح الإسلام.

واجتمعوا جميعاً وقرروا أن يرسلوا إليه رسالة وعيدية على لسان عمر بن الوليد بن عبد الملك ، فأرسل إليه عمر بن الوليد رسالة شديدة قال فيها: من عمر بن الوليد إلى ابن عبد العزيز ، أما بعد: فلقد أزريت بمن سبقك من الخلفاء، وسرت في الناس بغير سيرتهم، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعملت في قرابتك بغير الحق!

فعمدت إلى أموالهم ومواريثهم وحقوقهم وأدخلتها بيت مالك عدوناً وزوراً وظلماً! فاتق الله يا ابن عبد العزيز، وإلا ليوشكن بك ألا تستقر على منبرك! وعيد واضح، وتهديد صارخ، وما كان من هذا الورع البكاء التقي النقي إلا أن يتحول إلى زلزال مدمر، وإعصار مزمجر! وعلى الفور يرد برسالة شديدة على عمر بن الوليد فيقول فيها: من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى ابن الوليد، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فعهدي بك يا ابن الوليد كنت جباراً شقياً، والآن ترسل إلي وتتهمني بالظلم لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين! الذي هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل! ألا إن شئت يابن الوليد أخبرتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه أبوك الوليد بن عبد الملك، الذي حين كان خليفة للمسلمين استخلفك عليهم صبياً سفيهاً تحكم في دمائهم وأموالهم! فويل لك وويل لأبيك! ألا إن شئت أخبرتك يا بن الوليد بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه من ولَّى الحجاج بن يوسف يسبي المال الحرام، ويسفك الدم الحرام! ألا إن شئت أخبرتك يا ابن الوليد بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه من ولّى يزيد بن أبي مسلم على المغرب كلها يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام! ألا رويدك يا ابن الوليد، فوالله لو طالت بي حياة لأقيمنك وأهلك على المحجة البيضاء. والسلام. إنها العظمة! ورع تقي بكاء وجل في خلوته، بينه وبين ربه، أما على كرسي الحكم والسياسة فهو القوي الشديد، صاحب العينين الثاقبتين اللتين تدوران كعيني الصقر فتلقط كل شاردة وواردة، وبالفعل أيها الأحباب! تغير كل شيء بعدما غير الولاة وأمناء بيت المال، وغير القضاة، وغير كل شيء، واستتب الأمر من جديد على أروع ما يكون، حتى إن الناس أحسوا بأنهم يعشون في عصر النبوة!

ولقد كانت لعمر رضي الله عنه سياسة محددة في رد مظالم بني أمية، فحين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان، وسألوه ما عودهم الخلفاء

الأمويون من قبله، أراد عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أن يردهم عن أبيه، فقال له عمر: « وما تبلغهم؟ »، قال: «أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم : (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)»، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموي، فجمعهم وطلب إليهم أن يُخرجوا ما بأيدهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق ولم تمضِ سوى أيام معدودات حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع.

وعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها، فقالت: « إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك »، قال: « ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم »، فقالت: « إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً»، فقال: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره »، فدعا بدينار وجنب ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار فإذا احمرّ تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر، فقال: « أي عمة، أما ترثين لابن أخيك من هذا؟ »،ثم قال: « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم، فلم يُروَ أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه »، فقالت: «حسبك، قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً »، فرجعت إليهم

فأخبرتهم كلامه. وجاء في رواية أنها قالت لهم: «أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده »، فسكتوا.

ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصب أرضه، فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: «كم أنفقت في مجيئك إلي؟»، قال: «يا أمير المؤمنين، تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف؟»، فأجابه عمر: « إنما رددت عليك حقك »، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً تعويضاً له عن نفقات سفره. وقال ابن موسى: « ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات ».

وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت، وقد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فردع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً، فإن لم يردّ الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم. وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » .

تبين لنا من هذه السياسات الحكيمة للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ألا حظيت برضاء جميع الناس مما ساعدعلى توحيد الأمة خلفه لحكمة الخليفة في تدبير أمور الخلافة، بل خمدت نار الفتن وخاصة من معارضي الدولة سابقا ؛ مما جعل الناس مقلين عليه بانضوائهم تحت لوائه وطاعتهم إياه .

عزل جميع الولاة الظالمين

لما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة، عمد إلى جميع الولاة والحكام الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، وعزل كل القضاة الذين كانوا في عهد الحجاج. فقال له أحدهم أنا عملت مع الحجاج شهرا واحدا فلم تعزلني؟ فقال له يكفيني ان الحجاج رضي عنك وعينك .

ومنهم خالد بن الريان صاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري، فقال عمر بن عبد العزيز: «يا خالد، ضع هذا السيف عنك، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبداً»، ثم قال لعمرو بن مهاجر: «والله إنك لتعلم يا عمرو إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قربة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي» .

وقد رأى عمر رجلاً كثير الصلاة، فأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: «يا فلان، إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين، فمالي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟»، فقال الرجل: «لك عطاء سنة»، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط في الاختبار.

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي، وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل؛

فكان يقطع الأيدي في خلاف دون تحقق شروط القطع، فأمر به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يحبس في كل جُنُد سنة، ويُقيّد ويُحلّ عنه القيد عند كل صلاة ثم يُرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم بفلسطين سنة، ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة، فردّ أسامة على مصر في عمله.

القضاة في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

منصب القضاء في الإسلام من أعلى المراتب؛ لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) (غافر: ٢٠). فكأن القاضي نائب عن الله في حكمه وفتواه، يقول الإمام الغزالي: "إنه أفضل من الجهاد" .قال تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) (ص: ٢٦)، وقال تعالى:)إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ((النساء: ٥٨)، وقال تعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِين)(النساء: ١٣٥)، وقال تعالى: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (الشورى: ١٥) .

وقال ﷺ: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) (صحيح مسلم). وروى أبو ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺفيما روى عن الله عز وجل في الحديث القدسي أنه قال : (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا)، (صحيح مسلم) . ومن هنا أدرك المسلمون قيمة العدل، ووجوب تطبيقه فيما بينهم.

وفي الحديث:(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ (سنن الترمذي) .

ولم يكن تطبيق العدل فيما بين المسلمين وبعضهم فقط، بل أمرنا الله عز وجل بضرورة التعامل بالعدل مع من نكرههم ونبغضهم، وهو ما كان جديدًا في ساحة التعامل العالمي، ومن ثَمَّ قال تعالى: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون) (المائدة: ٨)

بل أكد الإسلام على ضرورة التعامل بالقسط مع غير المسلمين، وحذَّر من انتقاصه حقه، أو ظلمه لضعفه، أو خيانته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن أبي داود)، وفي الحديث : (تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ) (صحيح مسلم) .

بل الأكثر من ذلك، فقد حذر الإسلام المتخاصمين من تزييف الحقائق، أو تزوير الأدلة، والإتيان بالحجج والأدلة التي تؤيد له وجهة نظره، وتُعينه على أخذ حق غير حقه، ولا شكَّ أن هذه التربية الإسلامية القويمة، هي مما تجعل ضمير المسلم يقظًا ضد كل شرٍّ، حذرًا من كل تدليس أو تغيير للحق؛ ولذلك قال النبي ﷺ : (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ)(صحيح البخاري) .

كان العهد الأموي امتدادًا للعهد الراشدي في عدة جوانب؛ إذ بقي كثير من الصحابة إلى العهد الأموي، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقي بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي، وبعضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث –رحمه الله–، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان والالتزام بالدين والتقيد

بالأحكام الشرعية. وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي ظهرت في العهد العباسي، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي، وظهر التوسع بالاجتهاد .

وما لبث أن وقع انحراف في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة، وهو الخلافة واستبدال الملك العضوض به إلاّ أن الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرّفات الحكام .

اتبع الأمويون نفس أسلوب الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة. حيث يَقوم الخلفاء بتعيين قاض على كل إقليم من أقاليم الدولة حسبَ كفاءته وأهليته للعمل. وقد دون بعض هؤلاء القضاة أحاكمهم، مثل قاضي مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان"سليم التجيبي" الذي كان أول قاض يدون أحكامه، وقد أصبحت بعض هذه الأحكام فيما بعد قواعد فقهية عندَ تدوين الفقه في العصر العباسي. ومن أبرز القضاة الأمويين :عامر بن شراحيل الشعبي وعبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي وأبو إدريس الخولاني وعبد الرحمن بن حجيرة وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الرحمن بن أذينة العبدي وفرج بن كنانة الكناني وهشام بن هبيرة، وآخرون غيرهم .

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يدقق في اختيار القضاة حتى لا يبتلى الناس بقاض يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقد اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط، ولا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهي: العلم – والحلم – والعفة – والاستشارة – والقوة في الحق وكانت الأحكام في الدماء والقصاص والحدود تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد فصلت فيها في كتابي عن

عمر بن عبد العزيز، وكان يأمر ولاته بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم تثبت عليه قضية يخلى سبيله.. ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء؛ لأنه كان زاجراً لأهل الفسق والزعارة فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: فلو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف أهل الفسق والزعارة ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم إنما هو حبس وليس نظر، فمر ولاتك جميعا بالنظر في أمر أهل المحبوس في كل الأيام فمن كان عليه ذنب أدب وأطلق، ومن لم تكن له قضية خُلّي عنه... لقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك، ولم تكن حقوق الإنسان في سجون دولة عمر بن عبد العزيز منتهكة، وقد كتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا في السجون ممن قام عليه الحق، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي فإن من ارتشى ضاع ما أمر به. ويمضي عمر بن عبد العزيز قدماً في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يُجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة ليتولوا أمور السجناء، ويأمر ولاته بقوله: وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد، ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبساً على حدة. فانظر إلى عمر بن عبد العزيز في اهتمامه بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم ودفع الظلم عنهم.

كان يراعى في اختيار القضاة الصفات التي تحقق العدالة والمساواة؛ من العلم، والتقوى، والعدل، والعفة، وما يتصل بذلك .

وقد حرص الخلفاء الأمويون على تولية من اتصف بالعلم والصلاح والأمانة لولاية القضاء، فقد ولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قضاء مصر لابن خذامر الصنعاني؛ وكان ذلك بعد سابق معرفة وتأكد من قدرة ابن خذامر على تحمل أعباء هذه المهمة الثقيلة؛ فقد روى ابن حجر عن سبب تعيين عمر بن عبد العزيز لابن خذامر قوله: "وفد من أهل مصر وفدٌ على سليمان بن عبد الملك منهم ابن خذامر الصنعاني، فسألهم سليمَان عن شيء من أهل المغرب، فأخبروه، وأبى ابن خذامر أن يتكلم، فلما خرجوا، قال له عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما منعك من الكلام يا أبا مسعود؟ قال: خفت والله أن أكذب. فعرفها له عمر، فلما وَلِيَ كتب إلى أيوب بن شراحبيل بولاية ابن خذامر القضاء، فولي القضاء من سنة مائة إلى سنة خمس ومائة" .

إن معرفة الرجال واختبارهم أمر ضروري جدا في تسيير شئون الدولة، ومعرفة مَن يصلح لها ممن لا يصلح؛ ولذلك فحينما كان عمر بمثابة وزير لسليمان بن عبد الملك، عرف جيدًا من هم الرجال القادرون على تحمل المسئولية، وقد أسر عمر في نفسه صلاحية ابن خذامر لولاية القضاء في إمارة من الإمارات الإسلامية، وهو ما تم بالفعل، ولقد صدق ظن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الرجل، فقد تولَى خمس سنوات كاملة أدى فيها الواجب على أكمل ما يكون؛ ولذلك قال ابن حجر في حق ابن خذامر: "وهو أول من ولي القضاء بمصر من غير العرب، ولم يقبض منذ أن ولي القضاء – بسبب القضاء – درهمًا ولا دينارا".

وكان القضاء مجانيًا في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان يعطي المتظلم نفقات سفره .

فاطمأن في عهده الفقراء والضعفاء، وساد الأمن والرخاء .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتفي باليسير من البينات في ردّ المظالم إلى أهلها، لما يعلم من ظلم الولاة .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب إلى عماله

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى بعض عماله على البلاد الإسلامية:أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين.

وروى الطبراني والدارقطني وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم إلى عمر بن عبد العزيز، أنه كتب إلى عامل له: أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، واتباع سنة رسوله، والاقتصاد في أمره، وترك ما أحدث المحدثون بعده ممن قد حارب سنته وكفوا مؤنته، ثم أعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها، – أو قال دليل عليها – فعليك لزوم السنة فإنه إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل، والحمق والخطأ والتعمق، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وعلى العمل الشديد أشد، و إنما كان عملهم على الأسد، و لو كان فيما تحملون أنفسكم فضل لكانوا فيه أحرى، وإليه أجرى، لأنهم السابقون إلى كل خير، فإن قلت: قد حدث بعدهم خير، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين، وحاد عن طريقهم، و رغبت نفسه عنهم، ولقد تكلموا منه ما يكفي، و وصفوا منه ما يشفي، فأين لا أين، فمن دونهم مقصر، ومن فوقهم غير محسن، ولقد قصر أقوام دينهم فحفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، فرحم الله ابن عبد العزيز. ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء و غيرهم؟ فرحمه الله وعفا عنه .

وروى الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ، عن سعيد بن أبي مريم، عن رشيد بن سعيد، قال: حدثني عقيل، عن شهاب، عن عمر بن عبد العزيز. قال: سن رسول الله ﷺ وخلفاؤه بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، فمن اقتدى بما سبق هدي، ومن استبصر بها أبصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا .

مارواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاَّم في كتاب الأموال. لكن الأثر في أموال بيت المال لا في في أموال الزكاة فحسب، فروى أبو عبيد بإسناده عن سهيل بن أبي صالح، عن رجل من الأنصار، قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق: أن أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن انظر كل من أدان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، قال: قد قضيت عنهم وبقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن زوج كل شاب يريد الزواج، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مخرج هذا: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين . ورواه ابن زنجويه في الأموال أيضا من طريق أبي عبيد .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عَدَلْتَ، وإما اعتزلت، والسلام .

وحدثنا أحمد بن إسحاق، ثنا عبد الله بن أبي داود، ثنا علي بن خشرم، ثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : لا

تعاقب رجلا لمكان جلسائه، ولا لغضب عليه، ولا تؤدب أحدا من أهل بيتك إلا على قدر ذنبه، وإن لم تبلغ إلا سوطا واحدا .

حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا أحمد بن مسعود، ثنا محمد بن كثير، ثنا الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: ولا تركب دابة إلا دابة يضبط سيرها أضعف دابة في الجيش .

حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا أحمد بن مسعود، ثنا محمد بن كثير، ثنا الأوزاعي

قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد عامله على اليمن: انظر من قبلك من بني فلان فأقصهم عنك، ولا تشركهم في شيء من عملك، فإنهم بئس أهل البيت كانوا .

حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا محمد بن يحيى، ثنا إبراهيم بن حمزة، ثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبيد الله بن عمر، عنابن شهاب قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد، فاتق الله فيمن وليت أمره، ولا تأمن مكره في تأخيره عقوبته، فإنه إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حدثنا علي بن حميد الواسطي، ومحمد بن أحمد بن الحسن قالا: ثنا بشر بن موسى، ثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى، ثنا محمد بن عيسى، عن عبد العزيز قال: كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالا يرمها به فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد، قد فهمت كتابك وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها، والسلام .

حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا الحسن بن أبي الربيع، ثنا سعيد بن عامر، عن عون بن معمر قال: كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قيل قد مات، فأجابه عمر: أما بعد، فكأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة ولم تزل .

حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا عبد الرزاق، عن معمر قال: كتب عمر إلى عدي بن أرطاة -وكان استخلفه على البصرة: - أما بعد فإنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، أظهرت لي الخير فأحسنت بك الظن ، وقد أظهر الله علي ما كنتم تكتمون، والسلام .

حدثنا أبو بكر الطلحي، ثنا عبد الله بن محمد الحراني، ثنا يوسف القطان، ثنا جرير بن عبد الحميد، ثنا جابر بن حنظلة الضبي قال: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: فهمت كتابك، ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

حدثنا محمد بن إبراهيم، ثنا محمد بن الحسن بن قتيبة، ثنا أحمد بن زيد الخزاز، ثنا ضمرة، ثنا كريز بن سليمان، أن عمر بن عبد العزيز، كتب إلى عامله عبد الله بن عون على فلسطين أن اركب إلى البيت الذي يقال له المكس فاهدمه، ثم احمله إلى البحر فانسفه في اليم نسفا .

حدثنا أحمد بن جعفر بن سلم، ثنا إدريس بن عبد الكريم، ثنا محرز بن عون، ثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبد الله بن موسى قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: ما طاقة المسلم بجور السلطان مع نزغ الشيطان، إن من عون المسلم على دينه أن يتقي بحقه .

حدثنا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبو عبد الله السلمي، حدثني مبشر، عن نوفل بن أبي الفرات قال: كتبت الحجبة إلى عمر بن عبد العزيز، يأمر للبيت بكسوة كما يفعل من كان قبله، فكتب إليهم: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنهم أولى بذلك من البيت .

حدثنا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبو عبد الله السلمي قال: حدثني مبشر، عن نوفل بن أبي الفرات قال : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز، فكنت أختم على بيادر أهل الذمة، فجاءني كتاب عمر أن لا تفعل، فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج، وأنا أكره أن أتأسى به .

العمل بمبدأ "الشورى"

اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: «إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي، ولا يُفقد معهما حزم» .

وقد تبين مبدأ الشورى في أول يوم من خلافته، حيث قال للناس: «أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي»، فصاح الناس صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولّ أمرنا باليمن والبركة».وبذلك خرج عمر رضي الله عنه من مبدأ توريث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال في خطبته الأولى: «وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ»، ثم نزل .

وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه في الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا. وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله، بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين .

وكان عمر رضي الله عنه يستشير العلماء ويطلب نصحهم في كثير من الأمور، أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال: «إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليّ» . كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من

الرجال، وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لمّا تولّى الخلافة، فقرّب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، وكان يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمرو بن مهاجر: «إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟»، وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره.

ففي عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اتسعت مشاركته للعلماء في مختلف الميادين بشكل لم يسبق له مثيل في الدولة الأموية، ويرجع ذلك إلى سببين وهما:

الأول – حرص عمر رضي الله عنه على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه .

والثاني - وهذا السبب يتعلق بالعلماء أنفسهم، حيث لم ير أي أحد منهم لنفسه مبرراً في البعد عنه والمشاركة في إعانته على أمور الحكم، فمن الواجب على العلماء تحمل أعباء المسؤولية التي تلقى على عواتقهم، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه لما علموا من صلاحه وإخلاصه .

ومن قول العلماء في عمر بن عبد العزيز، كما نقل عنهم ابن عساكر في تاريخه: (ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله) .

لقد أسهم العلماء في مساعدة عمر بن عبدالعزيز في السير في منهجه الإصلاحي حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية كما كان لبعضهم أثر في اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات، فمن ذلك: فقد أُثر عن العالم عرَّاك بن مالك الغفاري المدني – أحد علماء التابعين – أنه طلب منه انتزاع جميع الأموال التي حازها بنو أمية

من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض هذا العالم بعد وفاة عمر إلى غضب بني أمية فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى جزيرة في بحر اليمن وبقي فيها إلى أن مات .

لذلك اختار عمر لسياسة الرعية وأعمال الحق بين الناس الولاة الثقات من أهل الدين والعلم وممن اشتهروا بالأمانة والقوة في غير بأس والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء و الحكمة .

ولاهتمامه رضي الله عنه بالعلماء ولمكانتهم في قلبه كلفهم بمهام وأعباء الدولة الإسلامية، وأرسل العلماء إلى الأمصار والبوادى، ليعلّموا أهلها ويفقهوهم. ثم عمّم «عمر» المنشور تلو الآخر لولاته وعماله بإفشاء العلم بين الناس، ينقل أبوبكر بن حزم كتاباً عاماً لعماله يقول فيه: «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يتعلم من لم يتعلم»، وفرض الرواتب للعلماء والمتعلمين، بما يكفل تدبير أمور معاشهم، روى الخطيب البغدادى عن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبدالعزيز إلى ولاته: «مُرْ لأهل العلم من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلّا يشغلهم شيء عن العلم» وكان يوزع الأموال على طلبة العلم، واليتامى، والمساكين، والمرضى، والأرامل، والمحتاجين كل يوم جمعة .

وقد قال ابن كثير في ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من أستعمله عمر بن عبد العزيز ثقة و ذكر من هؤلاء:

- ولى ميمون بن مهران على خراج الجزيرة .
- وولى الإمام الفقيه الثقة عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة .

- وولى العالم القدير أبا بكر بن عمر بن حزم على المدينة المنورة .
- وولى الإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على أفريقية .
- وولى الفقيه المحدث عدي ابن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذريبجان .
- وولى القاضي عبادة بن نسي بن وابصة العبدي على الرقة .
- وولى العالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن .
- وولى الثقة الصالح صالح بن جبير الصداني على الخراج لعمر.

وبالتالي لم تكن هذه القرارات ارتجالية من خليفة المسلمين، يخشى المؤامرات الداخلية من حوله، أو قرارات طائشة من حاكم شاب متزهد سقط فجأة فوجد نفسه حاكما .

لم يكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجل زهد وولاية وجد نفسه فجأة خليفة؛ بل كان رجل دولة استشعر الأمانة، وراقب الله فيما أُوكل إليه، وتحمل مسؤولية دولته الكبيرة بجدٍّ واجتهاد؛ فكان منه ما جعل الناس ينظرون إليه بإعجاب وتقدير .

وكان يختار ولاته بعد تدقيق شديد، ومعرفة كاملة بأخلاقهم وقدراتهم؛ فلا يلي عنده منصبًا إلا من رجحت كفته كفاءة وعلمًا وإيمانًا، وحسبك أن تستعرض أسماء من اختارهم لولاياته؛ فتجد فيهم العالم الفقيه، والسياسي البارع، والقائد الفاتح، من أمثال أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أمير المدينة وقاضيها، والجراح بن عبد الله الحكيمي، أمير البصرة، وكان قائدًا فاتحًا، وإداريًا عظيمًا، وعابدًا قائدًا، والسمح بن مالك أمير الأندلس، وكان قائدًا فذًا، استُشهد على أرض الأندلس، وكان باقي ولاته على هذه الدرجة من القدرة والكفاءة.

وكان عمر لا يكتفي بحسن الاختيار بعد دراسة وتجربة، بل كان يتابع ويراقب، لكن مراقبته لم تكن مراقبة المتهم، بل كان يراقب تطبيق السياسة العامة التي وضعها للدولة .

وإذا كان قد أخذ نفسه بالشدة والحياة الخشنة، فإنه لم يلزم بها ولاته، بل وسّع عليهم في العطاء، وفرض لهم رواتب جيدة تحميهم من الانشغال بطلب الرزق، وتصرفهم عن الانشغال بأحوال المسلمين، كما منعهم من الاشتغال بالتجارة، وأعطى لهم الحرية في إدارة شئون ولاتهم؛ فلا يشاورونه إلا في الأمور العظيمة، وكان يظهر ضيقه من الولاة إذا استوضحوه في الأمور الصغيرة.. كتب إليه أحد ولاته يستوضح منه أمرًا لا يحتاج إلى قرار من الخليفة، فضاق منه عمر، وكتب إليه: " أما بعد، فأراك لو أرسلتُ إليك أن اذبح شاة، ووزع لحمها على الفقراء، لأرسلت إلي تسألني: كبيرة أم صغيرة؟ فإن أجبتك أرسلت تسأل: بيضاء أم سوداء؟ إذا أرسلت إليك بأمر، فتبيَّن وجه الحق منه، ثم أمْضِه " .

اتفق علماء أهل السنة والجماعة على أنّ عمر بن عبد العزيز قد ألزم نفسه طريقاً واحداً هو إحياء ما مات من السنن الحميدة التي غفل عنها الناس حكاماً ومحكومين. إذ رأى أن المسلمين قد حادوا عن صحيح الدين وتحديداً في سلوكياتهم ومعاملاتهم، والتي مست العقيدة بشكل غير مباشر. فوضع نصب عينيه أن تستهدف عملية الإحياء الديني تقويم تلك السلوكيات وإعادتها إلى صحيح الدين، لكي تكون انعكاساً لجوهر الإسلام، كما كان الحال في السلف الصالح من قبل .

ولذا كانت أولى مهامه الرئيسة، إعادة تمكين العقيدة من النفوس، وتهيئة الأذهان لتقبل الإحياء الديني بما فيه من مشاق، بعدما هيمنت متاع الدنيا وحبها على المسلمين، فطغت على أنفسهم، وتحديداً تلك الشريحة من الولاة والأسر الحاكمة.

وبعكس التجديد وما فيه من مراعاة للأولويات والتدرج في عمليات التغيير بقصد المواءمة مع مقتضيات الواقع، فإن النهج العمري في الإحياء لم يكن بحاجة لتلك التدرجية كما يقول البعض .

وأتى نهجه قاسياً وحاداً على أولئك الذين إعتادوا الإسراف والتمتع بما لم يأت الإسلام به من سلطان، ومحبباً للذين نشدوا العدل والحرية والمساواة من قبله فلم يجدوها، فمثل أولئك ناصروه بقلوبهم ودعواتهم، وأما الأولون فهم الذين ناصبوه العداء والتربص به .

ولذا يروي أن بني قومه من آل مروان وأمية اجتمعوا يوماً للتدارس في أحوالهم بعدما سلبهم عمر كل ما لديهم من أسباب التفاخر والتكبر على عباد الله المسلمين وسواهم بهم، فبعثوا بأحدهم يكلمه في مطلب وحيد وهو استعادة ما كان لديهم من عز وجاه وسلطان، مؤكدين له أن من كان قبله من الخلفاء يعرف لهم قدرهم، وأنه قد حرمهم وأخذ ما كان بين أيديهم من ثروة ومتاع.. فكان رده عليهم أن حمّل رسولهم رسالة قال فيها: " إرجع إليهم وقل لهم: إني أخاف الله إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" .

ويذكر العديد من المؤرخين أن المنهاج العمري في الإحياء والتجديد اتسم بعدة سمات، من أبرزها: إشاعة المساواة بين الرعية، وما تلا ذلك من إلغاء لما ورث بالنفوس منذ بدء الخلافة الأموية من خنوع تام للولاة والحكام لحد التقديس مقلدين في ذلك ما حولهم من إمبراطوريات الرومانية والفارسية وغيرها من الأمم.[٢]

---

* الشورى هي مصطلح إسلامي استمده بعض فقهاء وعلماء المسلمين من بعض آيات القرآن مثل قوله تعالى { :وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } (سورة الشورى-آية ٣٨) للدلالة على ما اعتبروه المبدأ شرعي من مبادئ الإسلام المتعلق بتقليب الآراء، ووجهات النظر في قضية من القضايا، أو موضوع من الموضوعات، واختيارها من أصحاب الرأي والخبرة، وصولاً إلى الصواب، وأفضل الآراء، من أجل تحقيق أحسن النتائج .

حرصه على نشر العلم بين الرعية

حرص عمر رضي الله عنه على نشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، وقد ورد عنه أنه قال في إحدى خطبه: « إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»، وقال أيضاً: « فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنّة يُعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً»، وفي موضع آخر قال: «والله لولا أن أُنعش سُنّة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقاً » .

ولا يمكن بأي حال أن نتطرق إلى المؤسسة السياسية الإسلامية دون الحديث عن واحدة من أهم مميزات هذه المؤسسة؛ فالإسلام قد جاء بمبدأ إنساني غاية في العظمة والروعة، وهو مبدأ الشورى، بل سُميت سورة من سور القرآن الكريم باسم "الشورى"؛ دلالة على أهمية تحقق هذا الشرط في أي شأن من شئون المسلمين.

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء حول آليات تنفيذ هذا المبدأ من ناحية الاختيار أو الوجوب والإلزام، لكنهم مُجمِعُون على ضرورة تَحَقُّقها بين المسلمين مصداقًا لقوله تعالى.: [وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ] {آل عمران: ١٥٩ }

وتُعرَّف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يرونه أهلاً للقوّة والإمامة لتولِّي أمرهم؛ ومما يؤكِّد ذلك ويؤصِّله أن الرسول r لم يترك نصًا مكتوبًا ولم يستخلف أحدًا ليتولَّى إمامة المسلمين، وإنما ترك الأمر شورى بينهم، وقد روى عن أبي وائل قال : قيل لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه – : ألا تستخلف علينا ؟ قال : ما استخلف رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فأستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيرا ، فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم .هذا حديث صحيح الإسناد

هناك اتفاق بأن الشورى في الإسلام منوطة بفئة من المسلمين يُطلق عليهم أهل الشورى (الحلِّ والعقد)، وقد تحدَّث الفقهاء عن ضرورة توافر بعض الشروط فيهم؛ وهي: العدالة، والعلم، والرأي، والحكمة. ومن ثَمَّ يمكن إجمالهم في "العلماء والرُّؤساء ووجوه النَّاس الَّذين يتيسَّر اجتماعهم".

لذلك كانت الشورى من الأمور الضرورية الملحة التي يفرضها الإسلام على ولاة الأمور، ويمكن القول: إنها من أهم المظاهر الحضارية التي أسهم المسلمون في إيجادها وإرسائها في المجتمع الإسلامي، وتأثر بها الآخرون، خاصة في أوربا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ولذلك كانت الشورى نوعًا من التعبير عن الإرادة الإلهية؛ استنادًا إلى ما يقوله الرسول" إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ "

لقد خشيَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يَضيع الحديث بموت العلماء الذين يَحفظونه فأمرَ بتدوينه، فكتبَ إلى ولاته على أقاليم الدولة المختلفة وأمر كلاً منهم بجمع الحديث من العلماء في ولايته، وبهذه الطريق بدأت حركة تدوين الحديث بالتوسُّع تدريجياً، وقضى الكثير من العلماء سنوات طويلة في جمعه وتدوينه، ومن أبرز المحدثين في العصر الأموي محمد بن مسلم الزهري و ابن إسحاق و سفيان الثوري و محمد بن راشد اليمنيّ وابن جريج المكي و مالك بن أنس . ولهذا بعث عمر رضي الله عنه العلماء لتعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وحواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: « ومُر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم »، ومما كتب إلى بعض عماله: « أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت » .

كما أمر عماله أن يُجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو. وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقّهون أهلها.

المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

الحياة العلمية في بلاد الخلافة في العصر الأموي يستطيع الباحث أن يتتبع نشوء التفسير القرآني وتطوره في القرن الأول الهجري وكان من أبرز علماء التفسير في تلك الفترة سعيد بن جبير (المتوفى سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م) . ويعدّ من أكثر التابعين علماً ومكانة، ومن أوائل مفسري القرآن الكريم .

روى ابن سعد والفَسَوي عن ميمون بن مهران قال: قد مات سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، قال: أرى في التفسير على نحو أوضح من كل فروع المعرفة الأخرى .

- أن هذا العصر شهد حياة جيلين فريدين، جيل الصحابة المتلقي عن النبي، وجيل التابعين والذي دخل ضمن الخيرية التي أطلقها الرسول ﷺ على أجيال الأمة الإسلامية حيث قال ﷺ: " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم".
- إن هذا العصر أساس الحركة العلمية في العصور الإسلامية جميعها، حيث تم فيه التدوين العلوم لأول مرة – رسميا – في تاريخ الدولة الإسلامية .

كما شهد هذا العصر فتوحات عظيمة للدولة الإسلامية، نتج عن ذلك دخول شعوب جديدة ذات حضارات قديمة، كان لها إسهام في تطور العلوم في العصر الأموي.

ظهرت المدارس العلمية أولا في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد اتخذ من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة فنشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها

وأشرف الصحابة رضوان الله عليهم على تعليم وتربية الناس فيها، ومن بعدهم التابعين رضي الله عنهم أجمعين، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة ساندت الدولة التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من قرأنيا فريدا من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوي، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، وقد ازدهرت العلوم والترجمة في العصر الأموي ازدهارا كبيرا حتى بدت منطلقة بسرعة عالية في استكشاف آفاق العلوم والتعرف على جديدها ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لا بد – للإفادة من ذلك التراث– من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا " تراثًا تقليديًّا تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية" .

وقد كان بعض هذه الترجمات حافزًا على الاهتمام بالعلوم التجريبية وربما كان العكس صحيحًا أحيانًا. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين؛ ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما نرى .

وشملت الحركة العلمية في العصر الأموي الإهتمام بالفقه وتاريخ الأنبياء وسيرة الرسول ﷺوشملت العلوم التي عني بها أيضا معرفة السنن والفريضة وتلاوة القرآن والمواريث واللغة العربية، بالإضافة إلى الأنساب والشعر والمغازي، والأخبار وأيام العرب وقد توسعت الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية ورواية الحديث .

ولقد أثرت المدارس العلمية والفقهية في المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التي نقلت

للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد استمرت مدارس التابعين في النشاط العلمي في عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحي التجديدي الراشدي المنضبط بمنهاج النبوة .

من إحياء للسنة وقمع للبدعة ومن أهم تلك المدارس:

١ـ مدرسة الشام:

تأسست في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة، معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت رضي الله عنهم وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ. الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني ، عائذ بن عبد الله:

قاضي دمشق وعالمها، روى عن أبي الدرداء، وأبي هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء قال: أدركت أبي الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما(١٧٥). كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك ابن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وانصتوا له وسجد بهم جميعاً... حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُ . وعن يزيد بن أبي مالك، قال: كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺحتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني، وقد عزل عبد الملك بن

مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء . وولى أبا إدريس . ثم أن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي، توفي عام ٨٠هـ .

ب . الفقيه قبيصة بن ذؤويب الدمشقي:

روي عن عمر بن الخطاب، وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، قال عنه مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤويب من علماء هذه الأمة، توفي سنة ٨٦هـ وقيل ٨٧هـ، وقيل٨٨هـ، وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

ج . رجاء بن حيوة الفلسطيني:

من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرضى من صديقه بالإخلاص له دام سخطه ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه . كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم أنَّه بعد ذلك أُخِر، فأقبل على شأنه، توفي سنة ١١٢هـ .

س . مكحول الشامي الدمشقي:

عالم أهل الشام عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري سمع من واثلة بن الأسقع وواثله آخر من مات من الصحابة بدمشق، وتوفي عام ٨٥هـ وله ثمان وتسعون سنة، قال عنه الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة،

والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام . وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه توفي ١١٢هـ وقيل ١١٣هـ وقيل غير ذلك .

ع. عمر بن عبد العزيز:

ومن علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفاً بالفقه بصير بالسنة، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها . وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية.

س. بلال بن سعد السكوني:

الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص نافعاً للعامة وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت يقول الأوزاعي: لم أسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن سعد، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُقى إنكم لم تُخلقوا للفناء وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار . ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر من عصيت . وقال الأوزاعي سمعته يقول: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها . وقد توفي سنة نيف وعشرة ومائة.

٢ ـ المدرسة المدنية:

لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد

من شئون في المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التي كثرت وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون ١٣٠ مائة وثلاثين صحابياً وكان المكثرون منهم سبعة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

٣- المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين على بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمات القران ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبع منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية في هذا العلم وأهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس رضي الله عنهما وأستاذيته لها، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية .

أ. مجاهد بن جبر المكي:

أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهاً عالماً ثقة من أوعية العلم، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أَقِفُه عند كل آية، اسأله فيم نزلت، وكيف كانت، وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته وعن مجاهد قال. قال لي عمر بن عبد العزيز في مرض وفاته: يا مجاهد ما يقول الناس فيّ قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السُمُّ؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال: اذهب حيث لا يراك أحد، وقال مجاهد: ما أدري أي النعمتين أعظم، أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء . قال الذهبي معلقاً على قول مجاهد: مثل الرّفض والقدر والتجهّم . وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحاب يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بني ما هؤلاء بأصحابي، لا يجعل الله من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنب له، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد، وكان عمره ثلاث وثمانين سنة .

ب. عكرمة مولى ابن عباس:

كان مكياً تابعياً ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس، وعائشة وأبي هريرة وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلي بن أبي طالب، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس بالدار وعن عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنه

قال له: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هذا الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقي، وصار إلى إفريقية، وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر ونقل ذلك ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة . وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة، توفي سنة ١٠٥هـ.

ج. عطاء بن أبي رباح:

مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبي سعيد وعدة من الصحابة . وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علي وعنكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح توفي سنة ١١٥ هـ . هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي .

٤ ـ المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك

رضي الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين أمثال الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم.

ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ. محمد بن سيرين البصري:

كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختياني وكان جالساً: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين . وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البُناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً . وكان محمد بن سيرين يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان قد أشتهر بتفسير الأحلام وهو اشهر من أن يعرف في هذا الباب قال عنه الذهبي: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب، وكان له في ذلك تأييد الهي . وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم، وكان صاحب ضحك ومزاح، وكان باراً بأمه قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا أشترى لها ثوباً أشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي إليها، وعن ابن عون، أن محمداً كان إذا كان عند أمه

لو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها . وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حلّ، قال: لا أُحلّ لكم شيئاً حرّمه الله . توفي ابن سيرين بعد الحسن البصري بمئة يوم، سنة عشر ومئة .

ب.قتادة بن دعامة السدوسي:

كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين وكان ثقة حجة في الحديث، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجد من يتقدمه . وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث . قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، كان رأساً في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة وصلى معه الصبح ثلاث سنين، توفي سنة ثماني عشرة ومائة .

٥.المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ. عامر بن شرحبيل الشعبي:

كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر وجمهرة غيره حتى قيل أنه أدرك خمسمائة من الصحابة، لذلك كان صاحب آثار كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم، وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه ولكن الفقهاء من إذا علم عمل، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبيَّ، فقال: ما اسم امرأة أبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته، توفي سنة أربع ومائة وقيل ست ومائة وقيل خمس ومائة .

ب. حمّاد بن أبي سلمة:

فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك وتتلمذ على يدي إبراهيم النخعي وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة . وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل، وكان أفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة، وأفقه أصحابه أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبي يوسف في الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعي رحمهم الله تعالى. وقد توفي حماد سنة عشرين ومائة .

٦. المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع

الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري، الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية:

أ. طاووس بن كيسان:

فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبراء أصحابه . وروى عن معاذ مرسلاً . كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له، كان فقيهاً جليلاً بركة لأهل اليمن . أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ. قال له عمر بن عبد العزيز في عهد سليمان: أرفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه حاجة فكأن عمر عجب من ذلك . ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج . وقال: البخل أن يبخل الرجل بما في يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما في أيدي الناس . وقال عنه قيس بن سعد الطاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال بن المديني: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحد . وكان رحمه معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفي بمكة سنة ست ومائة للهجرة .

ب. وهب بن منبه:

أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار . وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة . وقال عنه الذهبي: الإمام العلامة، الأخباري القصصي. وقال العجلي: تابعي ثقة كان على قضاء صنعاء وذكره شيرازي في فقهاء التابعين باليمن . وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر في محاربة الخوارج في اليمن وتحذير الناس من آرائهم، وإليك حواره مع أبي شمَّر الخولاني لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبي شمّر الخولاني إنه

من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرني أنه عرض له نفر من أهل حروراء - يعني الخوارج - فقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها في موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامي، فقال: يا ذا خولان أتريد أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله؟ ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرني يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب: إنهم يأمرونني أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم في الصدقة، فإنه قد بلغني أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) (الإنسان ، الآية : ٨). وأما قولهم لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) (الشورى ، الآية : ٥) فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (الأنبياء ، الآية : ٢٧). وجاء ميسراً (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) (غافر ، الآية : ٧)، واستمر معه في الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرني؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء فإذا أديتها إلى والي الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد إني نزلت عن رأي الحرورية . توفي وهب رحمه الله سنة عشر

ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقيل إن يوسف بن عمر والي اليمن ضربه حتى قتله، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه .

٧.المدرسة المصرية:

تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في موضع الفسطاط والأسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً في مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل في دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

يزيد بن أبي حبيب: الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية أبو رجاء الأزدي كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود . قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا . توفي سنة ثمان وعشرين ومائة .

٨ .مدرسة شمال إفريقيا:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقيا وكان على رأسهم عمرو بن العاص ثم عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنهم ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولى معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه . وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر والياً على إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام وكان

عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام، وسيأتي الحديث عن الفقهاء العشرة في محله بإذن الله ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والافتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس .

تدوين الحديث النبوي

نهى النبي محمد عن كتابة غير القرآن في أول الأمر؛ مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز. وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه.

ويذهب بعض المحققين الى أنّ النهي عن كتابة الحديث لم يكن نهياً شرعيّاً، ولم يصح ما نُسب من الروايات ـ الناهية عن التدوين إلى رسول الله ﷺ. بل إن قرار النهي والمنع كان نابعاً من موقفٍ سياسي اتخذه الخليفة عمربن الخطاب ومِن بعده الخلفاء. ومن الطبيعي أن تنقل روايات عن رسول الله في المنع لتصحيح مواقف الخليفة. إذ لو ثبت المنع عن رسول الله وعُرف هذا بين المسلمين لما دوَّن أبوبكر خمسمائة حديث، ولما تلقّى عمّن ائتمنه ووثق به! ولما كتب إلى عمرو بن العاص وأنس بن مالك بأحاديث رسول الله في الصدقة وغيرها .

منع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب تدوين الحديث النبوي في خلافته لم يسمح بكتابته من رواة الحديث وكان التعليل لهذا المنع هو لئلا يقع الخلط بين القرأن والحديث النبوي عند المسلمين. واستمر الحكام الامويون بممارسة هذا المنع لفترة طويلة مما ولد الكثير من الشك في نسبة الحديث إلى النبي ﷺ.

ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، أي الذي قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان (والد عمر) عندما كان أميراً

على مصر، بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: « أيها الناس، قيدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة».

قام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في مدة خلافته القصيرة ببعض الإنجازات الإيجابية والمفيدة، منها: إنه ألغى المنع والحظر عن رواية الحديث وكتابته الذي كان عليه سلفه من الحكام، وأمر بتدوينه. فقد روى البخاري: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم الذي تقلد القضاء أن أنظر ما كان من سنة أو حديث فإني خفت اندراس العلم وذهاب الحديث. يذهب بعض علماء أهل السنة الذين نقلوا رسالة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه المذكورة: أن تاريخ الرسالة هو تاريخ تدوين الحديث حيث بدأ التدوين منذ تاريخ أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أي من السنة الأخيرة من القرن الأول أو السنة الأولى من القرن الثاني .

لقد تبنت حكومة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جمعها رسميًا، فكتب إلى الآفاق:(انظروا حديث رسول الله ﷺفاجمعوه. وكان فيما كتب إلى أهل المدينة: انظروا حديث رسول الله ﷺفاكتبوه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله) .

وأصدر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث النبي محمد، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، وخشي من فشوّ الوضع ودس الأحاديث المكذوبة وخلطها بالصحيح من كلام النبي محمد، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري» :لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه«. ورأي

الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة عمر بن عبد العزيز، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين الحديث النبوي، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة.

كتب عمر إلى الإمام أبي بكر بن حزم، وهو أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري :وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبيﷺ ، ولتُفشوا العلم، ولتُجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً» .

وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله» .

كما وجه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً».

وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبّى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطوّلاً يوضح ذلك بالتفصيل . ومن هنا قال ابن حجر العسقلاني» : وأول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد» .

بل إن عمر وجّه أوامرَه إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع الحديث، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: «أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله» .

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من الحديث، وروى: «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء» .

فقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم في جواز كتابة الحديث، فكرهها عمر وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى وأبو سعيد الخدري في جماعة آخرين من الصحابة، كما كرهها بعض التابعين. وأباحها علي وابنه الحسن وأنس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم، والحجة للفريق الأول ما روى أبو سيعد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه" رواه مسلم.

والحجة للفريق الثاني قصة أبي شاهٍ اليمني في التماسه من رسول الله ﷺأن يكتب له شيئاً سمعه في خطبته عام فتح مكة" وقوله ﷺ" اكتبوا لأبي شاة" متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وفي الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه أنه قال في حديث له (وما في هذه الصحيفة) ثم ذكر أحاديث عن النبي ﷺمكتوبة فيها.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (لم يكن أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب" وفي رواية: استأذن

رسول الله في الكتابة فأذن له. وفي السنن: أن عبد الله بن عمرو قال يا رسول الله: أكتب عنك في الرضا والغضب؟ فقال اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق" وأشار بيده إلى فيه... ولعله ﷺأذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان، ونهى عن الكتابة عنه لمن وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتابة، أو نهى عن كتابته حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن وأذن في كتابته حين أُمِنَ من ذلك، ثم زال الاختلاف، وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه لدرس في الأعصر الأخيرة.

أما تدوين الحديث بصورة عامة فقد همَّ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه به، واستشار الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا عليه بذلك، ثم استخار الله شهراً، ثم قال: إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله عز وجل، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً، رواه البيهقي. وفي هذا ما يؤكد أن علة نهي النبي ﷺ عن كتابة الحديث هي ما ذكرنا قبل، من خشية أن يختلط على البعض القرآن بالسنة، لذا كان نهيه عن تدوين السنة عاماً، وإذنه كان خاصاً لظروف وملابسات معينه.

وأما تدوين السنة تدويناً عاماً، فتكاد تجمع الروايات أن أول من فعله هو الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز) إذ أرسل إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة قائلاً: (انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺفاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء) وأمره أن يكتب ما عند عمرة بنت عبد الرحمن، والقاسم بن محمد. ورغب إلى محمد بن مسلم الزهري أن يكتب بقية حديث أهل المدينة.

بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم مثل هذا، فقد أخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق (انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه)

ثم بعد ذلك شاع التدوين، وقمعت البدع. فلله الحمد والمنة أن حفظ كتابه، وهيأ رجالاً حفظوا سنة نبيه ﷺ.

شعور عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالمسئولية تجاه الأمة

لم يشأ الإسلام أن يجعل مسؤولية الفرد تجاه مجتمعه محصورة بمجتمعه المسلم، بل جعلها مسؤولية موسعة بحيث تتوجه نحو جميع أفراد المجتمع الواحد، من أية ملة أو فئة كانوا، لا فرق بين المسلم وغير المسلم في المعاملة.

ذلك لأن فلسفة الإسلام الاجتماعية تهدف إلى إقامة المجتمع السعيد المتكامل، ليرعى بعضه بعضا، ويوفر أسباب الهناءة والطمأنينة لجميع الناس على السواء، فلا يصح من الناحية المنهجية أن يقال أن الإسلام يدعو إلى تحسين العلاقات بين المسلم والمسلم فقط، ويجعل المسلم مسؤولا عن مصلحة إخوانه في الدين فحسب.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه رسول الله ﷺ في تعريف المسلم بقوله : «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده »، إذ جعل مسؤولية الفرد المسلم منعكسة على جميع أفراد المجتمع، قاطعا النظر عن عقائدهم وألوانهم واتجاهاتهم. على أنه يجب أن يكون حاضرا في الذهن، أن تحمل المسؤولية تجاه الآخرين من أبناء المجتمع كإحسان معاملتهم مثلا،

ومنع الأذى عنهم، وبذل الخير لهم، ليس معناه الخنوع والذل والتنازل عن الحقوق المشروعة، لأن فيه إضاعة لغايات الشرائع وإفسادا للمجتمع نفسه.

والإسلام كدين اجتماعي من الطراز الأول، إذا كان قد فرض الفرائض من صلاة وزكاة، وصوم وحج، فإنما فرضها لتكون عاملا طيبا في تزكية النفس البشرية، وإحياء الضمير الإنساني، اللذين بهما يجد المجتمع ما يتطلع إليه من أمن وسلام وتعاون مثمر.

وعلى ضوء هذه النزعة الاجتماعية في الإسلام، كان من أهم أصوله الوقوف على حقوق الرعية ورعاية مصالحهم، وذلك وفق التوجيه النبوي ..عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) متفق عليه. وصاية من الحاكم على رعاية أفراد المجتمع، ومسؤولية واضحة المعالم، بها يتأكد لدى الحاكم أن المجتمع منه وهو بعضه، وأن هذه البعضية من كل الطرفين تجاه الآخر، تحمله على أن ينظر على أنه كيان هام بالنسبة إليه، لا يفرط بمصالحه، ولا يتأخر ببذل وسعه في سبيل راحته ومصلحته وسعادته.

وهذا ما ذهب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه..قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.. إن عمر رحمة الله عليه كان قد فرَغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسي مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته إلى أن أمسى المساء وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان من ماله الخاص، فصلى ركعتين ثم أقعى – جلس – واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خدَّيه، يشهق الشهقةَ يكاد ينصدع لها قلبه ، وتخرج له نفسه ، حتى

برِقَ الصُبح فأصبح صائماً، فدنوت منه وقلت له : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان– أي صيام، وقيام، وعمل متواصل– ؟ فقال : أجل يا فاطمة عليكِ بشأنكِ وخلِّيني وشأني قالت: إني أرجو أن أتعظ – أن أتعلم منك – أي ما شأنك ؟ قال: إذاً أخبركِ، ما دمتِ تريدين أن تتعظي إذاً أخبرك، فقال: إني نظرت فوجدتني قد ولّيت أمر هذه الأمة؛ أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقْهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائِلي عنهم جميعاً، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم، فخِفْت ألا يقبل الله مني معذرةً فيهم، وألا تقوم لي مع رسول الله حُجَّة، فرحمت نفسي يا فاطمة رحمةً دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكراً، ازددت منها خوفاً، فاتعظي إن شئت أو ذري .

كان الخليفة المؤمن وَقَّافٌ عند كتاب الله تعالي، دائماً يحاسب نفسه، مستشعرا عظم المهمة، واقفا عند حدوده، يرعي مصالح أمته ويتهم نفسه بالتقصير.

فهو يرعي أمته رعاية كاملة دون نقص أو تجزئة؛ فهو يعلم أن الرعاية لا تتجزأ، وهي وحدة متكاملة، وبالتالي فهو مسئول عنها، (كُلُكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ، إعلم أنك إذا حكمت بين طفلين في لعب أنت مسئول عن حكمك فيهم، فمابالك بأمة أنت مسئول عن صغيرها وكبيرها، وجائعها وفقيرها ويتيمها وأسيرها.. فالمهمة عظيمة لا يستشعرها إلا من خشي ربه .

هكذا كان عمر رضي الله عنه يستشعر المسئولية فكانت تؤرق مضجعه .

إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قد قام بأمر عظيم في نفسه وهو شعوره بالمسؤولية في ثقلها تجاه الأمة، فإنه لما ولي قال: إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله،

قد شب عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي حتى حسبه الناس ديناً. هكذا عندما يستشعر الإنسان حجم المسؤولية فإنه يبذل لها.

لقد أوزع الله في قلب عمر رضي الله عنه الرحمة والرفق بأمته، لما كان مؤمنا حقا، والله عز وجل رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فكلما نما الإيمان في قلب الإنسان ازداد رفقاً بمن حوله، ازداد لطفاً بمن حوله، فالقيادة ليست بالشيء السهل واليسير بل هم بالليل وهم بالنهار .

بدأ بنفسه رضي الله عنه فجردها من كل ما ليس بحق لها، ثم بأهله، فرد الأموال العظيمة إلى بيت المال، فنظرت إليه الرعية، فوجدوه قدوة يلبس مما يلبسون، ويأكل مما يأكلون، بل إنه كان حقيقة أقل من رعيته، فإنه حرم نفسه وأهل بيته من أمور كثيرة لما فيها من الشبهة عنده؛ ولأنه لا يرى لنفسه حقاً فيها، فاستطاع أن يجد الولاء من عامة الشعب كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حتى أهل الكتاب.. لقد استمال القلوب إليه حتى واصل العطاء حتى قبض رحمه الله .

رسخ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مفهوم الحريات بين الناس

اهتم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بكافة صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية.

ومن ذلك سياسته حيال النصارى واليهود كانت تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم وعدم التضييق عليهم في معتقدهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة، الآية: ٢٥٦).

وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام.

وأما حرية الفكر من حيث الرأي والتعبير، فقد أخذت نطاقاً واسعاً في إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كلّ ما يريد. وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق، إذا لم يخالف الشرع.

كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين إذ لإطاعة لا مخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكما أو والياً. فقد أعلن عمر في أول يوم من أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم. فقد خطب في الناس يوماً فقال: ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم.

ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازله في الخلافة، وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى في ممارستها في موضعين: أولهما المشاركة في اختيار الحاكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم . وثانيهما: إبداء الرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح .

الفصل الرابع

منهج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الإصلاح الاقتصادي

سياسته المالية:

عرف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قيمة مال الدولة؛ فلم ينفقه إلا فيما فيه نفع الأمة، وكان يكره التصرف في المال العام بلا ضابط أو رقيب، وكأنه مال خاص للخليفة أو الحاكم ينفقه كيفما شاء، ويعطيه لمن شاء؛ ولذا كان يحترز في إنفاق مال الدولة؛ لأنه أمانة يجب صيانتها، ولكل فرد في الأمة حق فيها يجب حفظه، وعمل على الإصلاح المالي والإداري في الدولة، ورسم لذلك منهجا وخطة للقضاء على كل مظاهر الفساد فيها وكان لها أثر طيب في فرض الأمن والإستقرار في ربوع البلاد، لقد أعطى عمر رضي الله عنه من نفسه القدوة والمثال في حفظ مال الدولة، فتبعه ولاته، وانتهجوا طريقته .

واكب الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه المجتمع الإسلامي وهو يعج بالاضطرابات السياسية، والانقسامات الاجتماعية، وحيثما حلت الفوضى السياسية عاصرها انهدام اقتصادي، أضف إلى ذلك عامل سوء الإدارة وانحلال القيم الناهش في جسم الاقتصاد الوطني، الذي ترك حجماً هائلاً وعبئاً ثقيلاً على حركة الاقتصاد وغيرها، حتى وصفها عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فقال: "الوليد بالشام، وقرة بمصر، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت الأرض والله جورا"، فلذا

كتب إلى بعض عماله: "أما بعد: فكن في العدل والإحسان كمن كان قبلك في الجور والظلم والعدوان" .

وفي خضم هذه المتغيرات، ومن بين الركام الاقتصادي، والاضطراب السياسي، والتهافت الخارجي الطامع في مقدرات الأمة الإسلامية، ظهر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، ذلك الفتى المنعم بأقصى درجات الرفاهية حيث قيل، "قومت ثياب عمر وهو يخطب باثني عشر درهما وكانت حلته قبل ذلك بألف درهم لا يرضاها"، والمثقف بأعلى درجات المعرفة، قال أحمد بن حنبل: "ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه"، وقال ميمون بن مهران: "كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه تلامذة"، المتوازن في التسلسل المنهجي والإبداع المنطقي في التعامل مع الأحداث .

ومن بين كل ذلك نهض رضي الله عنه وأخذ يتصور الوضع المقبل لحركة المجتمع الإسلامي في الأيام القابلة، وفي زمن قياسي وضع خطة مفتوحة لبناء نظام اقتصادي تطبيقي متكامل، كفيل بترتيب الأوضاع الاقتصادية ويتجاوز كل المعوقات، ويجني اكتفاءً ذاتياً ووفراً مالياً ثابتاً، بالاعتماد على المكتسبات الثابتة والممكنات المتغيرة، ووضع نفسه في حالة طوارئ حيث وصفها لمّا بُويع بالخلافة، حين أرسل إلى نسائه: من أرادت منكن الدنيا فلتلحق بأهلها فإن عمر قد جاءه شغل شاغل، وكتب إلى الحسن البصري يقول له: "إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظروا إليّ أعوانا يعينوني عليه"، ومع ذلك ففي عامين ونصف حقق تقدماً اقتصادياً في المجتمع الإسلامي الممتد من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، فكان عامه الأول عام إصلاح وترميم، وما بعد ذلك جاء الاستقرار الاقتصادي الشامل، إضافة إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي .

لقد تنبّه عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى حاجة الدولة الاقتصادية، وأدرك أهمية الإصلاح الاقتصادي في الاستقرار العام للدولة، وأن الفساد الإداري والمالي، عامل رئيس في الانحدار الاقتصادي والتردي السياسي والاجتماعي، والمؤثر المباشر على حركة المجتمع عامة .

تتبع كل مظاهر الفساد الوظيفي والمالي، ووضع القواعد والأحكام التي تضبط العملية الاقتصادية كلها .

كما لجأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى رفع المعاناة على الأمة وحذف كل أنواع الضرائب الزائدة واقتصر على ما يسمح به القانون وحده ولم يضعف ذلك ميزانية الدولة بل تضاعف دخلها كما تضاعت ثروة المجتمع بشكل لم يعرفه مجتمع أخر في التاريخ وهو عدم وجود عجز في الموارد الإقتصادية أو تأخر في عجلة التنمية بل قفزت كل مقدرات الدولة حتى أنه لم يوجد فقير واحد تحل فيه الصدقة .

المنهج الذي اتبعه عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في معالجة الأوضاع الاقتصادية لفترة خلافته، مع أنها كانت فترة وجيزة جداً إذا ما قورنت مع خطط التصحيح الاقتصادي في العصر الحديث، ومع ذلك حقق نجاحاً منقطع النظير، وحقق أهدافه التصحيحية .

عمل على معالجة الوضع القائم ووقف الهدر المالي، وحرر بيت المال من الأعباء المالية الراتبة عليه كاستحقاقات فردية للمتنفذين أوجبها لهم من سبقه من الخلفاء، وعمل على ترشيد نفقات القطاع العام والخاص، كما خطط لتوسيع موارد الدولة وبناء رأس مالها المستقل، وأعاد توزيع الدخل توزيعاً عادلاً، حتى أصبح المال في العام الثاني في متناول جميع طبقات المجتمع، فحقق بالنهج الإصلاحي الاستقرار بكل أبعاده، على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

عمل على دفع عجلة التنمية الاقتصادية من خلال المتاح من الأموال والطاقات المتيسرة، ووسع مجالات الاستثمار .

وإذا تتبعنا منهجه رضي الله عنه في الإصلاحات الاقتصادية، نجده قد تابع برنامجه الإصلاحي منذ تولي الخلافة حتى لحظات النزاع الأخير، قال مجاهد: قال لي عمر بن عبدالعزيز: ما يقول الناس فيَّ– أي في مرضه الذي مات فيه – قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها، ثم دعا غلاماً له فقال: له ويحك ما حملك على أن تسقيني السم، قال ألف دينار أعطيتها، وعلى أن أعتق، قال هاتها قال فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد، ثمن دمه وضعه في بيت مال المسلمين .

وهنا نرى أنه رضي الله عنه:

١) استشعر حجم الظلم والجور الذي ملأ الأرض .

٢) وجه ولاته إلى العدل والإحسان .

٣) استشعر حجم المسؤولية المناطة به ونهض على قدرها .

٤) إصراره على متابعة الإصلاحات حتى اللحظات الأخيرة من حياته .

رتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أهدافه من الإصلاح الاقتصادي والمبادئ التي استند إليها .

فالإنسان هو محور العملية الاقتصادية، والإسلام يدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، والتي تتناول جميع طبقات المجتمع بحيث لا يستبد الغني في غناه ولا يتردى الفقير بفقره، ولكن الإسلام يدعو إلى التقارب بين هذه الطبقات، وغالبا السياسة الاقتصادية، من العوامل الرئيسة في تحقيق العدالة الاجتماعية، وعندما يفقد المجتمع

الرفاه أو التقارب الطبقي دل على التيه السياسي على مستوى التنظير والتطبيق، ويقتضي ذلك التصحيح والإصلاح الاقتصادي، وحتى يتم ذلك لا بد له من مبادئ تسنده، وأهداف تحققه .

وهذا ما فعله عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما تسلم سلطات الخلافة، شرع في الإصلاح الاقتصادي الشامل ويظهر ذلك من خلال استقراء خطابه العام للمجتمع، أو الخاص للولاة وعمال الدواوين، فقد قرر بعض المبادئ التي استند إليها في تحقيق العدالة الاجتماعية، من خلال إعادة توزيع الثروة بشكل عادل وشامل، ودفع عجلة التنمية الاقتصادية، لتحقيق الرفاه الاجتماعي .

واعتمد رضي الله عنه المبادئ الإسلامية للإصلاح، وعمقها في عناصر التصحيح الاقتصادي ونشرها بين الأمصار وحمل المجتمع عليها بشتى الوسائل، ولم يتهاون فيها، لأن كل عمل لا بد له من مبادئ عامة ينطلق منها في البناء أو التصويب، فلذا كان عمر يتحري هذه المبادئ، ويبحث عنها لرسم سياسة النهج الإصلاحي بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية،وأهم هذه المبادئ هي:

- العدل: عامل مهم في تحقيق الاستقرار الكامل في العملية الاقتصادية أو النهج الإصلاحي، ويظهر من سؤال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظي حيث قال: دعاني عمر بن عبدالعزيز، فقال: صف لي العدل، فقلت: بخ سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتعد من العادين، ويتجلى ذلك من جوابه لما كتب بعض عماله إليه " أما بعد: فإن مدينتنا قد خربت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالا نرمها به- فرد عليه وقال- أما بعد:

فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام "، فإقامة العدل أهم من إقامة البناء، لأنه مع العدل سعة، ومع الظلم ضيق ومشقة .

- رفع الظلم: لأن عواقبه وخيمة ويثبط الهمم ويقعد المجتمع عن المشاركة الإيجابية في المحافظة على المكتسبات أو الاندماج في البناء الشامل، ويؤثر على الشعور بالانتماء إلى المجتمع، فلذا عند رفع الظلم يصبح المجتمع مشاركاً في المحافظة على المقدرات، ويدفع عجلة البناء بكل فعالية، فلذا كان من بواكير أعماله إزالة الظلم ومضانه فعمد إلى الإصلاحات الآتية في هذا الجانب:

١- تبييض السجون وإخراج جميع المساجين: فالسجن غالبا ما يكون مستقراً للمظلومين أو لمن ارتكب جرماً لا يستدعي هذه العقوبة أو فعلاً يستحق تلك العقوبة، والأغلب من هم في هذه الأوضاع قد يجد العفو عندهم أثره الأبلغ والإيجابي في الإصلاح، فلذا أخرج المساجين، قال محمد بن يزيد الأنصاري: "بعثني عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حين ولي فأخرجت من في السجون من حبس سليمان، ما خلا يزيد بن أبي مسلم"، وبعد ذلك لم يحتج عمر إلى هذه السجون ولم يدخلها أحد، بل قيل لم يعاقب أحداً في عهده إلا رجلا كان يزور الدنانير .

٢- من مقتضيات العدل ورفع الظلم، مراجعة الأحكام السابقة الظالمة: والتي ترتب عليها حقوق للناس، أو الفصل فيها إذا ما أثيرت من جديد، ومنها ما كتب به عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه " برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس "، ورفع الظلم لم يتوقف به عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عند المسلمين، بل شمل غير المسلمين، لأنهم وحدة إيجابية في عملية التكافل والبناء الاجتماعي، قال علي بن أبي حملة: " خاصمنا عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبدالعزيز في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعها لبني نصر بدمشق فأخرجنا عمر عنها وردها إلى النصارى ".

٣- مراجعة القضايا الكبرى والعالقة من حيث قانونيتها أو عدمها والفصل فيها: قال الواقدي: "لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبدالملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم"، وقال أبو عبيدة وغيره: "لما استخلف عمر بن عبدالعزيز، وفد عليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا فإن قضى بإخراج المسلمين، أخرجوا فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم" .

٤- إعادة الأموال التي أخذت من أصحابها ظلماً: لأنها تبقى حائلاً دون مشاركة الأفراد في مشروعات التنمية وتطوير الأوضاع الاقتصادية، وأن هذه الأموال تبقى في ذاكرة المجتمع مؤشراً سلبياً على ثقة الناس بالمصلح، لأن رفع شعار الإصلاح الاقتصادي يتعارض مع الصورة بإبقاء الظلم، لأن من لا يصلح القديم لا يحسن في الجديد، فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عماله في مال قبضه بعض الولاة ظلماً فأمر برده إلى أهله وتؤخذ زكاته لما مضى من السنين ثم عقب ذلك، بأن لا يؤخذ منه إلا زكاة سنة واحدة، فإنه كان ضماراً .

٥- رفع الضرر عن العامة وضمان ما أتلف من أموالهم إذا ما تعارضت المصلحة العامة مع الخاصة: قد تحتاج الدولة إلى بعض الأمور والتي قد تتعارض مع المصلحة الفردية لأفراد المجتمع، تحت أي سبب أو حاجة تقتضي ذلك الاستخدام، والذي قد يلحق الضرر بمصلحة الفرد، فان الدولة تغرم هذا الإضرار قال سعيد بن عثمان عن غيلان بن ميسرة: "أن رجلا أتى عمر بن عبدالعزيز فقال: زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه فعوضه عشرة آلاف درهم" هذا التعويض دافع إلى الأفراد

بأن يستمروا في المشاركة والتفاعل مع النهج الإصلاحي، وأنهم ينتمون إلى مجتمع يقدر الجهد المبذول.

- الاستفادة من التجارب السابقة والخبرات، لأن التطبيقات السابقة والناجحة، محطات إيجابية في عرض التاريخ إذا ما استدعاها المرء واستعملها حسب منهج إيجابي يحاكي به لغة العصر، فبذلك يتجاوز نقطة صفر البداية، ويتم حيث انتهى الآخرون، فلذا كتب عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة إلى سالم بن عبدالله أن اكتب إليَ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها.

- اتخاذ البطانة الصالحة والإيجابية والفعالة في البناء الإصلاحي: ويظهر ذلك من توصيته لمن حوله، قال عمرو بن مهاجر: قال عمر بن عبدالعزيز: " يا عمرو إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هزني ثم قل لي ماذا تصنع "، وبين مكانة الشخصية الإيجابية في الانتقاد البناء لأحد حاشيته، لما قضى بقضية وكان عنده ميمون بن مهران فلما قام عن مجلس الحكم قال له ميمون بن مهران: يا أمير المؤمنين إنك حكمت بكذا وكذا وليس وجه الحكم على ما حكمت. قال: فهلا نبهتني! قال: إني كرهت أن أوبخك على رؤوس الناس، قال: فهلا فعلت فإن لقائل الحق سلطاناً .

- محاربة الرشوة وإغلاق مداخلها باسم الهدية، قال: عمرو بن مهاجر اشتهى عمر بن عبدالعزيز تفاحاً، فأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً، فقال: ما أطيب ريحه وأحسنه ارفعه يا غلام للذي أتى به، وأقرئ فلاناً السلام، وقل له إن هديتك وقعت عندنا بحيث نحب، فقلت يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية فقال ويحك إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية وهي لنا اليوم رشوة .

- المحافظة على الأمن السياسي والاجتماعي: لأن الأمن الاقتصادي مرتبط بهما ويساهمان في تشكيل المناخ المناسب لاستقرار الأوضاع الاقتصادية، فقال: " قرة عين

الملوك في استفاضة الأمن في البلاد، وظهور مودة الرعية لهم وحسن ثنائهم عليهم "، فكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يشرف بنفسه على ذلك حيث خرج ومعه حرسي فدخل المسجد فمرّ في الظلمة برجل نائم فعثر به فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون؟ قال: لا، فهم به الحرسي، فقال له عمر: " مه إنما سألني أمجنون أنت فقلت: لا " .

● العمل المتواصل وعدم تأجيل عمل اليوم إلى يوم آخر: لأن الاستمرار في العمل بنسق واحد ومستمر يؤدي إلى الغاية المنشودة، وما أنجز من العمل فإنه يأخذ دوره وأثره المباشر في حركة الإصلاح، ولا يشكل عبئاً على عناصر العمل في اليوم الآخر، فلذا لما قال ريان بن عبدالعزيز، لعمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت قال عمر: فمن يجزي عمل ذلك اليوم، قال: تجزيه من الغد، قال: " لقد كدحني عمل يوم واحد فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين في يوم واحد " .

● المرجعية الثابتة للولاة في الإصلاح: وعدم فتح مداخل الهوى أو رغبات النفوس على المنهاج الإصلاحي، لأنه بذلك ترتفع وتيرة الظلم والإفساد، قال يحيى الغساني:" لما ولاني عمر بن عبدالعزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقباً فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة، وما جرت عليه السنة، فكتب إليّ أن آخذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: " ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا " .

ومنها ما قال السائب بن محمد: "كتب الجراح بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم، وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك"، فكتب إليه عمر: "أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر

أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام"، لأن إهانة الشخصية الإنسانية وهدر كرامتها يتعارض مع المبادئ الثابتة، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (٧٠: الإسراء)، لأن الشخصية المقهورة أو المهانة لا تصلح في مشروعات التنمية والإصلاح أو تكون صالحة الانتماء .

• قمع محاولات التزوير أو العمل على التضخم المالي: الأصل أن يكون هناك توازن بين كثرة الأموال النقدية وحاجة السوق، لحفظ القيمة الشرائية للعملات، وزج السيولة النقدية بغير ضبط قد يؤثر على الوضع الاقتصادي، قال الواقدي: "أتي برجل إلى عمر بن عبدالعزيز يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده فطرحه في النار"، كما حث على تبديل العملات المضروبة من الأسواق، قال الأوزاعي: كتب إلى خزان بيوت الأموال أن: " إذا أتاكم الضعيف بالدينار لا ينفق عنه، فأبدلوه من بيت المال " .

• العدل المالي ورفع الظلم: من خلال رؤيته الثاقبة بوجود انتهاكات في تطبيق السياسة المالية لمن سبقوه من أمراء بني أمية، من خلال قوله فيما سبق ذكره: « وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها عليه الصلاة والسلام ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم »، وهو ما دفعه إلى ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم وجعلها أساسا لقيام سياسة مالية راشدة، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم، هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسي من مقاصدها، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (الحديد: ٢٥). يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها،

ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة . ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول في ذلك: ما من طينة أهون علي فتا، ولا كتاب أيسر علي ردا من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها .

ثانيا: أهداف عمر بن عبدالعزيز من الإصلاح الاقتصادي

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: مالي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني .

وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً. وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنا من شؤون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيها استرعى .

إن السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية مطلب مهم في حياة المجتمعات، لأن الهدف من النشاط الإنتاجي هو إشباع حاجات الإنسان بمختلف مستوياتها من ضروريات وشبه ضروريات وكماليات في حدود المباح مما أحل الله في شريعة الإسلام، ومن خلال استقراء نهج عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في الإصلاح الاقتصادي نستنتج أنه كان يسعى إلى تحقيق الرفاه الاجتماعي، وقد وضع أهداف تحقيق ذلك .

والتي يمكن حصرها في هدفين وهما:

الهدف الأول: إعادة توزيع الثروة، بشكل عادل والحد من التفاوت الطبقي.

عدالة التوزيع وهذه الحالة تقتضي إعادة توزيع الثروة، وشرع عمر بن عبدالعزيز بإعادة توزيع الثروة لما تجمعت بأيدي فئة متنفذة في المجتمع لما انتهت إليه الخلافة .

وينكر الإسلام تركز الثروات في أيدي فئة قليلة، حتى تصبح القلة تملك كل شيء والكثرة تموت تحت وطأة الفقر والحاجة، قال تعالى: (مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب) (الحشر: ٧)، والآية تشير إلى توزيع الثروة بين طبقات المجتمع، ولا تبقى الأموال متداولة بين الأغنياء .

وعمل الخليفة العادل رضي الله عنه على تفعيل هذا المبدأ وتحقيق هذا الهدف، فتبنى – ومن اللحظات الأولى– إعادة توزيع الثروة، بحيث تشمل جميع طبقات المجتمع، حيث قال: "ليس لأحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني"، وفي هذا القول تصور شامل لكل المساحة الاجتماعية التي يخطط إلى وصول أفراد المجتمع إلى حقوقهم، بل وصول الحقوق إليهم كاملة، دون تمييز فئة عن الأخرى .

ويظهر ذلك جلياً من قول وهيب بن الورد، قال: اجتمع بنو مروان إلى باب عمر بن عبدالعزيز فقالوا لابنه عبدالملك: قل لأبيك إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا وإن أباك قد حرمنا ما في يديه فدخل على أبيه فأخبره فقال لهم: إن أبي يقول لكم إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، وبذلك أوقف التميز في الأعطيات والرواتب دون بقية أفراد المجتمع، وحرمانه لهم كان من باب

العدالة في توزيع الثروة، فقالوا له: لم أما لنا قرابة أما لنا حق؟ قال: "ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء"، ويعزز هذا النهج في المساواة بين الرعية وفي توزيع الدخل، على جميع طبقات المجتمع قول الأوزاعي: "لما قطع عمر بن عبدالعزيز عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة، كلموه في ذلك فقال: لن يتسع مالي لكم وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد" .

وكانت عملية إعادة توزيع الثروة شاملة الصغير والكبير، ويتجلى ذلك من فعل عمر في توزيع الأعطيات والرواتب بحيث تشمل الجميع، فألحق رضي الله عنه ذراري الرجال الذين في العطايا، أقرع بينهم فمن أصابته القرعة جعله في المائة ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين وقسم في فقراء أهل البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم فأعطى الزمني خمسين خمسين قال: وأراه رزق الفطيم .

والذرية يريد به من كان ليس من أهل الديوان، ولم يبلغ الخامسة عشر من العمر، وهنا شملت عملية إعادة توزيع الثروة جميع طبقات المجتمع سواء كان مسجلاً في الديوان أم لا، حتى الأطفال والمعاقين شملتهم إعادة توزيع الثروة .

كانت مهمة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في تحقيق هذا الهدف، هدم الأفكار والمسلكيات السائدة، وإعادة صياغة التفكير الاقتصادي من جديد على ضوء الكتاب والسنة، وبالمشاركة الفعالة في تشكيل الإنتاج وتوزيعه، قال أبو عبيد: دخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبدالعزيز فقال: يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا فمنعتناها، ولى عيال وضيعة أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي لما يصلح عيالي؟ فقال عمر: أحبكم من كفانا مؤنته .

التفكير الاقتصادي السائد لدى عنبسة هو الاعتماد على العطاء والامتياز الخاص، وفي إعادة توزيع الثروة، أدرك أصحاب هذه الامتيازات أنه لا بد من المشاركة الفعالة في الإنتاج والاعتماد على الذات .

وهناك كثير من السبل التي سلكها عمر بن عبدالعزيز لتحقيق هذا الهدف، ما بين تصويب نهج قائم، إلى فتح مجالات متنوعة لشمول التوزيع جميع أفراده،

راع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دفع عجلة التنمية الاقتصادية، والسعي لتحقيق الرفاه الاجتماعي في ربوع البلاد .

إذ أن التنمية هي عملية استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة للمجتمع، في تحقيق زيادات مستمرة في الدخل، تفوق معدلات النمو السكاني، بما يؤدي إلى إحداث زيادات حقيقية في متوسط نصيب الفرد من الدخل، ويعني ذلك تحقيق مستويات متزايدة من الدخل، ومن عناصر القدرة الاقتصادية، إلى جانب مشاركة الدولة في إشباع الحاجات الأساسية لغير القادرين، وتوفيرها للاستقرار والأمن الداخلي والخارجي.

هدف عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى أخذ المجتمع بمجالات التنمية الشاملة، والوصول إلى تحقيق الرفاه الاجتماعي، ويظهر ذلك من نقده للسياسة الاقتصادية السابقة والتي أهملت التنمية ونتج عنها المشكلة الاقتصادية التي عاشتها المجتمعات، في ظل الظروف السياسية السابقة، وكانت كتبه للولاة تظهر ذلك، ومنها ما كتبه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن، واليه على الكوفة فقال: سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام وسنن خبيثة سنتها عليهم عمال السوء، وإن أقوم الدين العدل والإحسان، أي لا تحمل عناصر التنمية فوق طاقتهم، لأن ما زاد على طاقتهم سيكون سبباً إلى ترك مجالات التنمية، وترك الأرض .

ومظاهر حياة الرفاه في الإسلام هي مراعاة تقوى الله، مع وفرة الإنتاج، وعدالة التوزيع، بتحقيق الكفاية لكل فرد، إلى جانب سيادة الأمن في المجتمع، قال تعالى: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) (النحل: ١١٢)، وإلى هذه المظاهر أشار عمر بن عبدالعزيز في خطابه السابق إلى ولاته .

وإلى هذا البعد رمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ترك الأرض المفتوحة بيد أهل الذمة، قال الأوزاعي: أجمع رأي عمر وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ظهروا على الشام على إقرار أهل القرى في قراهم على ما كان بأيديهم من أرضهم يعمرونها ويؤدون خراجها إلى المسلمين ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرض طوعاً ولا كرهاً.

وعلى هذا النهج أعاد عمر بن عبدالعزيز التنمية إلى ما كانت عليه، وكان فعله بعد أن سأل الناس عبدالملك والوليد وسليمان أن يأذنوا لهم في شراء الأرض من أهل الذمة فأذنوا لهم، فلما ولي عمر بن عبدالعزيز، أعرض عن تلك الأشرية، وكتب كتاباً، قرئ على الناس سنة المائة، أن من اشترى شيئا بعد سنة مائة فإن بيعه مردود، حتى لا تتجمع الأرض بأيدي فئة من الأغنياء، وحتى لا يتعطل توزيع مصادر الدخل، وتتوقف مشروعات التنمية والاستثمار .

الفصل الخامس

منهج عمر بن عبدالعزيز في تصحيح الوضع القائم

الإصلاح الاقتصادي الحقيقي مرتبط بتطبيق منهجية الإصلاح كاملة، لأنه لا إصلاح على سبيل المثال مع وجود الهدر المالي وتبديد الثروة فلا بد من معالجة للوضع الخطأ والتقدم إلى تطبيق المنهج الإسلامي بكامل أبعاده، لأن الانتقائية محط انتقاد من الشريعة الإسلامية قال تعالى:(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(البقرة: ٨٥) .

فالإسلام أوجد وسائل كثيرة لعلاج مشكلة الفقر مثلا، ومن هذه الوسائل العمل وكفالة الأقارب، والزكاة، والصدقات التطوعية، والإحسان الفردي، ومن بيت مال المسلمين، لكنه اشترط لنجاح ذلك أن يطبق في مجتمع يأخذ الإسلام قلباً وقالباً.

وكانت منهجية عمر تصحيح الوضع القائم، بعدة وسائل تعمل على وقف الهدر المالي، وتصحيح توزيع الدخل على جميع أفراد المجتمع، وقد عمل لتحقيق هذا الأمر من الأيام الأولى لتوليه الخلافة،وذلك من خلال الأعمال والتصورات الآتية: أولا: حرر الموازنة العامة من الأعباء الراتبة والروتينية:

فكانت هناك بعض الاستحقاقات الراتبة واليومية أو المرحلية لبعض الأفراد، والتي تسبب الهدر المالي في بناء رأس مال بيت مال المسلمين، لأنها أصبحت مكسباً

شخصياً وثابتاً، بغض النظر عن مستوى الوفر المالي أو العبء السالب لبيت المال، لأن هذا المكتسب يبقى ثابتاً وإن شكل عجزاً مالياً، وهو غير خاضع للتغيرات الاقتصادية للدولة، فلذا رأى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حتمية وقف هذا الهدر الاقتصادي فعمد إلى الإصلاحات الآتية:-

- مراجعة الاستحقاقات المالية لذوى الامتيازات الخاصة ووقفها، أعطت الإدارات السياسية السابقة بعض الاستحقاقات المالية، لبعض الأشخاص الذين لهم صلة بالخلافة لتغطية نفقاتهم الشخصية، بدون أن يكون هناك جهد يستدعي مثل هذه النفقات، فيعد ذلك هدراً للمال العام، بدون أن يكون هناك تغذية راجعة للموقف المالي، فأوقف هذه الاستحقاقات، وراجعه أقرباؤه بها على أن يتغاضى عن هذه المعادلة، ويرجع إليهم ما كان يجري عليهم من أرزاقهم الخاصة، لكنه منعهم.

- ترشيد نفقات قطاع الخدمات، لأنه يترتب على قطاع الخدمات الكثير من الالتزامات المالية، خارج دائرة المساهمة في بناء الوفر الاقتصادي، فلذا اقتصر عمر بن عبدالعزيز على الحاجات الحقيقية في النفقات في هذا الجانب، ومنها لما قدم إليه صاحب المراكب مركب الخليفة فأبى، وقال: ائتوني ببغلتي، لأنها تؤدي الحاجة المقصودة ولا تشكل مؤشراً خدمياً زائداً على المعيار الإصلاحي، فلذا عمد إلى معالجة هذا الوضع الزائد عن الحاجة الخدمية معالجة جذرية، قال الحكم بن عمر: شهدت عمر رضي الله عنه حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها، قال: " ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد واجعل أثمانها في مال الله تكفيني بغلتي هذه الشهباء "، وبذلك حدد الكلفة المترتبة على هذا الجانب الخدمي، الذي يعد في جانب النفقات السلبية في حركة الأموال، فأعطى بذلك بعداً في حركة التصحيح .

• مصادرة الأموال التي حصل عليها بعض الأفراد بغير وجه حق وإعادتها إلى بيت مال المسلمين، كانت هذه الأموال من الأعطيات التي كان يقدمها الخلفاء لهم دون العامة، وأول ما استرجع عطاء زوجته من والدها، قال فرات بن السائب: قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لامرأته فاطمة بنت عبدالملك – وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله: – "اختاري، إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد"، قالت: "لا بل اختارك عليه وعلى أضعافهط، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين .

• ضبط النفقات الخاصة، لم يسرف عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في النفقات الخاصة به، ولم يستغل الوظيفة باستخدام الأموال العامة، والتي إن استفاد منها هو كشخص، سوغ استخدامها لكل من استطاعت يده الوصول إليها من أفراد الدولة، على مستوى كبار الموظفين أو غيرهم، فكل ذلك حتما يشكل عبئاً على العملية الاقتصادية، فلذا كان حازماً فيه ولم يتهاون بأصغر الأمور وأدقها، ومنها، قال عطاء الخرساني: "أمر عمر غلامه أن يسخن له ماء فانطلق فسخن قمقما في مطبخ العامة فأمر عمر أن يأخذ بدرهم حطبا يضعه في المطبخ"، وبذلك فصل بين العمل العام والعمل الخاص، لأنه إذا اختلط الأمران أصبحت إمكانية الاستفادة منهما مستساغة لغيره، لذا فرق عمر في ذلك وعده استغلالاً للوظيفة .

ويظهر هذا الفصل بين الأمرين من فعله رضي الله عنه، حيث قال عمر بن مهاجر: "كان عمر يسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه"، وقال سعيد بن عبدالرحمن: "إن عمر بن عبدالعزيز إذا أراد أن يكتب في حاجة المسلمين، كتب في طوامير المسلمين، وكان إذا

أسرج سراجاً في حاجة المسلمين يكتب كتاباً أو غيره أسرج من بيت مال المسلمين، وإذا أراد أن يكتب في حوائجه أو في غيرها أسرج من ماله".

معالجة الفساد الإداري، فعمد إلى الإصلاح الوظيفي الذي حتماً يرتب وظيفة مالية على رأس المال، قال الحكم بن عمر: كان للخليفة ثلاثمائة حرسي وثلاثمائة شرطي، فقال عمر للحرس: إن لي عنكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله"، فعندما نظر رضي الله عنه إلى هذا الكم من الحرس، وجد فيهم زيادة على الحاجة الطبيعية لهذا الأداء الوظيفي، والاستغناء عن خدماتهم فيه مضيعة اجتماعية لهم، وإبقائهم يؤثر على رأس المال، فعالج هذا الفساد معالجة كانت غاية في الدقة والعمق الإداري والنهج المثالي، فنظر إلى كلفة الحاجة الوظيفية لهذا الجانب، فقدرها بثلاثة آلاف دينار، وهذا المبلغ لا يؤثر في زيادة الإنفاق، ومن رغب بالاستمرار منهم فله ذلك وفتح المجال لمن يترك، جمعاً بين المصلحة العامة والخاصة.[٣]

*مفهوم الإصلاح: الإصلاح لغة: من فعل أصلح يصلح إصلاحًا ، أي إزالة الفساد بين القوم، والتوفيق بينهم . وهو نقيض الفساد، فالاصلاح هو التغير الى إستقامة الحال على ما تدعو إليه الحكمة، ومن هذا التعريف يتبين أن كلمة إصلاح تطلق على ما هو مادي ، وعلى ما هو معنوي، فالمقصود بالاصلاح من الناحية اللغوية، الانتقال أو التغير من حال إلى حال أحسن، أو التحول عن شيئ والانصراف عنه الى سواه . وقد ورد لفظ الاصلاح في القرآن الكريم في أكثر من سورة مثل قوله تعالى: (والله يعلم المصلح من المفسد)، وقوله مخاطباً فرعون: (إنْ تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، وما تريد أن تكون من المصلحين) .
أما إصطلاحًا: فيعرفه قاموس "أكسفورد" الإصلاح بأنه" تغير أوتبديل نحو الأفضل في حالة الأشياء ذات النقائص، وخاصة في المؤسسات و الممارسات السياسية الفاسدة أو الجائرة ، إزالة بعض التعسف أو الخطأ". الإصلاح يوازي فكرة التقدم، وينطوي جوهريًاعلى فكرة التغيير نحوالأفضل، وخاصة التغير الأكثر ملائمة من أجل تحقيق الأهداف الموضوعية من قبل أصحاب القرار في حقل معين من حقول (النشاط الإنساني) .

ويعرف قاموس "وبستر" للمصطلحات السياسية (١٩٨٨) الإصلاح السياسي بأنه "تحسين النظام السياسي من أجل إزالة الفساد والاستبداد" . ويعتبر الإصلاح السياسي ركنًا أساسيًا مرسخًا للحكم الصالح ، ومن مظاهره سيادة القانون و الشفافية و المشاركة الشعبية في إتخاذ القرار والعدل وفعالية الإنجاز وكفاءة الإدارة و المحاسبة والمسائلة والرؤية الإستراتيجية ، وهو تجديد

ثانيا: وضع تصوراً عاماً للمشكلة الاقتصادية :

تتمثل المشكلة الاقتصادية في الإسلام، بوجود الفقر ومن مظاهره البطالة والتضخم وافتقار العدالة في توزيع موارد الإنتاج المتوفرة في المجتمعات، ومن واجبات الدولة توفير الحاجات الأساسية للفرد والمجتمع، وسبب ظهور المشكلة الاقتصادية، يكمن في بعد المسلمين عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة.

حتى يتمكن من وضع المعالجات لا بد من رصد مساحة الحاجة الاقتصادية، والتي من خلالها يحقق الاستقرار الاقتصادي المؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية، فاستشعر هذا الموقف واستجمع دوائر الحاجات الإنفاقية الكاملة، حتى يستوعب جميع أفراد عناصر المشكلة والمساحة التي يجب أن يغطيها لأنها مرتكزات الاستقرار الاقتصادي .

للحياة السياسية ، وتصحيح لمساراتها ، ولصيغها الدستورية ،والقانونية ، بما يضمن توافقًا عامًا للدستور ، وسيادة للقانون ، وفصلاً للسلطات ، وتحديدًا للعلاقات فيما بينها "وهو التعريف الذي يتبناه برنامج الأمم المتحدة لإدارة الحكم في الدول العربية" وعرفته الموسوعة السياسية بأنه "تعديل أو تطوير غير جذري في شكل الحكم أو العلاقات الإجتماعية دون المساس بأسسها ؛ وهو بخلاف الثورة ليس إلا تحسين في النظام السياسي و الإجتماعي القائم دون المساس بأسس هذا النظام، أنه أشبه ما يكون بإقامة الدعائم التي تساند المبنى لكي لا ينهار وعادة ما يستعمل الإصلاح لمنع الثورة من القيام أو من أجل تأخيرها. "

أن كلمة الإصلاح ليست جديدة على الفكر السياسي العربي، فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم عدة مرات كما أشرنا ، وبالتالي فان مفهوم الإصلاح ليس جديداً في العقل العربي – الإسلامي، بل هو مفهوم قديم لم يبدأ بظهور الأفكار والتيارات الإصلاحية في القرن الماضي أو المبادرات الإصلاحية في الوقت الراهن، فالدعوة إلى الإصلاح بدأت قديماً في الدولة الإسلامية.

أما مفهوم الإصلاح من الناحية الإقتصادية : فهو يعد الإصلاح الاقتصادي جسراً بين الإصلاحين السياسي والاجتماعي؛ إذ يخدم الطرفين معاً، ويُعرّف باحثون الإصلاح الاقتصادي بأنه مجموعة السياسات التصحيحية التدرّجية التي تتبناها دولة ما لمعالجة التشوّهات والاختلالات الهيكلية في الاقتصاد، ومواجهة الأزمات الخانقة، عبر إحداث تغييرات جوهرية في أساليب تعبئة الموارد وتوزيعها وإدارة الإنفاق، ورفع الكفاءة الإنتاجية بغية تحقيق الاستقرار والنمو الاقتصادي، وإشباع الحاجات والوصول لمستويات معيشية أفضل لأفراد المجتمع، في استراتيجية تستهدف تعديل بنية الاقتصاد الوطني ورفع درجة مرونته .

ويرتبط نجاح تجربة الإصلاح الاقتصادي بحضور بوصلة اجتماعية وإنسانية لدى صانع القرار، تضمن تخفيض التكلفة الاجتماعية، وتقليل الضغط على الفئات الأكثر ضعفاً في المجتمع، والتي من المتوقع تأثرها بالسياسات الإصلاحية.

فصور حجم المشكلة الاقتصادية، من خلال حديثه لفاطمة زوجته، لما دخلت عليه وهو في مصلاه تسيل دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة أني تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة فبكيت .

فبهذا التصور قد استجمع الوزارات والدوائر العامة اللازمة لاستيعاب هذه المساحة الخاضعة أو المعنية بالإصلاح، لأنهم المستفيدون من مخرجات الإنتاج والمشكلون لعناصره، فلا بد من متابعة هذه العناصر حتى تحصر هذه الحاجات، فترصد الموازنة العامة على ذلك، لضمان التوازن في توزيع الدخل وتهيئة البناء الاقتصادي لتكون الحاجات في متناول الجميع، فقسم في فقراء أهل البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم فأعطى الزمني خمسين خمسين قال: "وأراه رزق الفطيم"، عدالة اجتماعية شاملة لأفراد المجتمع .

واستحضار المؤسسات اللازمة، لمتابعة عملها في إيصال الحقوق الموكولة لها بكل أمانة وإخلاص، لتستمر عملية الاقتصاد الفعّالة، في بناء المجتمع، فمن ذلك:- قال وهيب بن الورد: أن عمر بن عبدالعزيز، اتخذ داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل، قال وتقدم إلى أهله إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها، فإنما هو للفقراء والمساكين، فجاء يوما فإذا مولاة له، معها صحفة فيها غرفة من لبن، فقال لها: ما هذا؟ قالت زوجتك حامل كما قد علمت، واشتهت غرفة من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئا فلم تؤت به تخوفت على ما في بطنها، أن يسقط فأخذت

هذه الغرفة من هذه الدار، فأخذ عمر بيدها فتوجه بها إلى زوجته وهو عالي الصوت، وهو يقول إن لم يمسك ما في بطنها إلا طعام المساكين والفقراء فلا أمسكه الله، فدخل على زوجته فقالت له: مالك؟، قال: تزعم هذه أنه لا يمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء، فإن لم يمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله، قالت: زوجته رديه، ويحك والله لا أذوقه قال: فردته .

ومنها توزيع الخدمات العامة على المحتاج إليها، لما كتب إلى أمصار الشام: أن ارفعوا إليَّ كل أعمى في الديوان، أو مقعد أو من به الفالج، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم، قال: وفضل من الرقيق فكتب أن ارفعوا إلي كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية، حل مشكلة ذوى الحاجات الخاصة، والأخذ بيدهم إلى الإسهام في مشروعات البناء حسب قدراتهم بعد إزالة العقبات .

وبذلك صحح الأخطاء الماضية، والتي تعد عائقاً للإصلاح الاقتصادي، ولا يستقيم مع وجودها الإصلاح، وبعد ذلك وظف الآثار المترتبة على تلك الأخطاء بما يتوافق مع منهجه الإصلاحي بمنتهى العدل والإحسان، فكانت معالجة وجدت قبولاً اجتماعياً .

وكان من نتائج هذه السياسة أن تدفقت الأموال إلى خزينة بيت المال من موارد الدولة المتنوعة التي حافظ الولاة عليها، ورَعَوْهَا حقَّ رعايتها، وكانت كفيلة بأن تقوم بكل مسؤوليات الدولة تجاه أفرادها، وتحسين حياتهم إلى الحد الذي جعله يكتب إلى أحد ولاته: "أن اقضوا عن الغارمين"؛ أي أدوا عنهم دَيْنَهم، فكتب إليه: "إنا نجد

الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث"، فكتب إليه عمر: "إنه لا بد للمرء المسلم من سكن يسكنه، وخادم يعينه، وفرس يجاهد عليه.. اقضوا عنه فإنه غارم" .

وبلغ من حرصه على الرفق برعيته، واحترامه لحقوق الإنسان أن جعل لكل أعمى قائدا يقوده ويخدمه، ولكل مريضين مرضًا شديدًا خادما لهما، ولكل خمسة أيتام أو من لا عائل لهم خادما يخدمهم، ويقوم على شؤونهم .

وفاضَ المال في بيت المال بفضل سياسته الحكيمة وعدله الناصع؛ فمكنه من فرض الرواتب للعلماء وطلاب العلم والمؤذنين، وفكّ رقاب الأسرى، وعالَ أسرَهُم في أثناء غيابهم، وقدم الأعطيات للسجناء مع الطعام والشراب، وحمّل بيت المال تكاليف زواج مَن لا يملك نفقاته .

لقد قام بيت المال بكل ما يحتاجه المسلمون حتى إن المنادي لينادي في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟... لقد اغتنى كل هؤلاء فلم تعد لهم حاجة إلى المال .

ويُذكر لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه أسقط الجزية عن أبناء البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الإسلام، وكان بعض عمال بني أمية لما أعوزهم المال بسبب الحروب واشتعال الثورات، أبقوا الجزية على هؤلاء، وأطلق عمر صيحته المشهورة رفضًا لهذا الإجراء: "إن الله بعث محمدًا هاديًا، ولم يبعثه جابيًا" .

خاتمه

إن التاريخ الإسلامي لا يُدرس لمجرد أنه قصص وأسمار وأحداث تاريخية عابرة أو للتسلية والتسري. بل يدرس لتؤخذ منه العبر، فيستفيد منه من يلي أمر المسلمين في معرفة كيفية تطبيق الإسلام والحكم في بلاد المسلمين، وكيفية إنزال الأحكام على الوقائع. فيستفيد من خبرات السابقين وحُسِن تطبيقهم للإسلام، فهم أصحاب عقول خلاقة وقدرات مبدعة، كما يستطيع أن يتجاوز أخطاءهم التي وقعت منهم، والأخطار التي واجهتهم، فيتعرف كيف تعاملوا مع تلك الأخطاء وتجاوزوها، وكيف واجهوا تلك الأخطار وتحدوها. خاصة وأنه لا توجد أمة تمتلك من الإرث التاريخي والحضاري ما تمتلكه الأمة الإسلامية .

إعلم أيها القارئ أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليس بنبي ولا بصحابي، وحكم لمدة سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، ملأ المعمورة فيها خيراً وعدلاً وبركة، واستقرارا، ووحد الأمة؛ فحقق الإصلاح وقضى على الفساد، ووضع حدًا لسفك الدماء، وخراب الديار، وتفرق الجماعات، ووفر الأمن والاستقرار والعدل بين الناس، وقضى على الفقر، وحقق التنمية، وأحيا السنة بين الناس وقمع البدعة وخلص منها العباد .

وإذا كان الرجل يكون فقيرًا قبل رئاسة الدولة ثم يصبح ثريًا بعدها، فإن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، على العكس من ذلك تمامًا، كان ثريًا قبل الرئاسة ثم أصبح فقيرًا بعدها ! .

إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قد قام بأمر عظيم في نفسه وهو شعوره بالمسؤولية في ثقلها تجاه المسلمين، فإنه لما ولي قال: إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا

الله، قد شب عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي حتى حسبه الناس ديناً. عندما يستشعر الإنسان حجم المسؤولية فإنه يبذل لها.

ومن أسباب نجاح ذلك الرجل في قيامه بذلك الأمر أنه بدأ بنفسه فجردها من كل هوى وما ليس بحق لها، ثم ببيته، ثم بأهله من بني أمية، فرد الأموال العظيمة إلى بيت المال، فنظرت إليه الرعية، فوجدوه قدوة يلبس مما يلبسون، ويأكل مما يأكلون، بل إنه كان حقيقة أقل من رعيته، إنه كان أقل من رعيته، فإنه حرم نفسه من أمور كثيرة لما فيها من الشبهة عنده؛ ولأنه لا يرى لنفسه حقاً فيها.

لقد أعادعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الثقة للأمة بأنها تستطيع أن تعود لمنبعها الصافي متى أرادت ذلك، فرغم الفوضى و الفساد والأخطار التي كانت تهدد بلاد المسلمين من كل مكان – وما أشبه الليلة بالبارحة – إلا أنه رضي الله عنه استطاع في قرابة ثلاثين شهرا أن يغير حال هذه الأمة وبلغت به المجد.. وأن بريق الأمل وشعاعه أقوى من كل تلك الأخطار والمؤامرات.. وإننا نعلم أن لله جنوداً يزودون عن هذا الحصن المنيع وينصرونه ويخلصون الناس من ربق العبودية إلى سعة الدنيا والآخرة، وكان لهذه الأمة أمثال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خرج ناصرا لهذا الأمر والدين العظيم الذي أكرم الله به الإنسانية.

وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه أبو أمامة الباهلي عنه قال:

(لَتُنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولها انقضاء الحكم وآخرهن الصلاة)، والحديث الثاني رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم يكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه إذا شاء الله

أن يرفعه ثم يكون ملكا جبريا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) .

ولله در القائل: " ملأ الأرض عدلاً بعد أن كادت تملأ جوراً، إيه يا عمر!

قد عشت عمرك زاهداً في كل ما جمع البشر

أتعبت من سيجيء بعدك في الخلافة يا عمر!

سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مثال راق من تاريخنا المجيد. كان شخصية قيادية جذابة، وتفانيه، و زهده، و تقواه، وخوفه، وورعه، يزرع في النفس السكينة، و يحسسنا بروعة هذا الدين و أهله، وكيف كان حاله بين الناس، من عدل وعدالة في التوزيع أغني الفقراء من العوز، ورحم العجائز والمرضي، وتكفل اليتامي ووضع الجزية عن أهل الذمة، لقد أعجز الخليفة الشاب الحكام من بعده وخاصة الظالمين منهم وكأنه يردد قول أبو العتاهية:

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا ... غداً عند الإله من الظلوم
أما والله إنَّ الظُّلم شؤمٌ ... وما زال المسيء هو الظَّلوم
إلى ديَّان يوم الدّين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصو
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غداً عند الإله من الملوم

ورغم أن خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كانت شديدة القصر، لكن ما فيها من خير وما حدث خلالها من تقدم وازدهارلا يمكن اختصاره بدون إخلال. هذا يعني أن الحكم الرشيد والقيادة الصالحة المترفعة عن الفساد وغير الساعية لمكاسب شخصية أو غيرها من المطامح الشهوانية؛ فهي لا تحتاج لخطط إقتصادية

قصيرة الأجل أو طويلة الأجل واستراتيجية لعشرات أو مئات السنين من أجل تحقيق إنجازات وتغيير على الأرض، بل تحتاج لعزيمة الرجال وإيمان بالله ومنهج قويم يواجه به الصعاب.

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للإنهيار في كل ساعة، وإنها ليست إلا حُلماً من الأحلام ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (البقرة: ١١١) .

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحي لمن يريد السير والإصلاح والتجديد والتنمية على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة، ولقد أخلص لله تعالى في مشروعه الإصلاحي فتولى الله توفيقه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، إن العصر الذي عاش فيه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبيل خلافته كان كما يصفه أحد الكتاب: " زمن قسوة من الأمراء "،كيف لا والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن ، وغيرهما بالحجاز وبمصر وبالمغرب، حتى قال عمر: " امتلأت الأرض والله جوراً ".

وكذلك فيه من الفساد أن راح كل قادر على النهب ينتهب ما تصل إليه يداه، وغابت الأخلاق فشاع الترف والانحلال، ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة في كل مناحي الحياة فيها، فلما ولي الخلافة ملء الأرض خيرا وعدلا .

وصدق القائل: " عمر بن عبد العزيز شخصية عربية إسلامية فذة، حيرت العقول بمسلكها ووافر علمها، وأذهلتها بروعة بساطتها، حتى وصف بأنه خامس الخلفاء الراشدين، ونجيبة بني مروان، ومعلم العلماء، وواحد أمته في الفضل. جمع زهداً

وعفافاً وورعاً، وشغله آجل العيش عن عاجله. وكان إماماً حافظاً زاهداً عابداً، ثبتاً حجة خطيباً مفوهاً، ذا منهج رشيد، ورأي في المعضلات سديد.

وقد عدت أيام حكمه من أزهى أيام الدولة الأموية إصلاحاً، وعدلاً، وعلماً، وخيراً، واستقامةً وأمناً ".

لقد استطاع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يقود ثورة إجتماعية عملية متكاملة برد المظالم؛ فقد انتزع الأرض والمال والثروة من الذين حازوها وملكوها بدون وجه حق وردها إلى بيت مال المسلمين كي تعود مرة أخرى ملكا للأمة جمعاء؛ لتكون العدالة الإجتماعية التي ينشدها الشعوب كافة .

وأخيرا أختم .. ولا أبلغ من كلام الإمام أحمد بن حنبل حينما قال : "إذا رأيت الرجل يحب عمر ويذكر محاسنه وينشرها فأعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله " .

قال الإمام الحافظ النووي في رياض الصالحين في باب أمر ولاة الأمور بالرفق واللين، ورعاية مصالح من استرعاهم الله عليهم. قال في سياق الأحاديث ما نقله عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي ﷺ في بيتي هذا يقول: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه) .

وهذا دعاء من النبي ﷺ على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة؛ حتى الإنسان يتولى أمر بيته، وحتى مدير المدرسة يتولى أمر المدرسة، وحتى المدرس يتولى أمر الفصل، وحتى الإمام يتولى أمر المسجد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " متفق عليه .

هكذا كان عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل وكانت سيرته نموذجا يحتذي به، ونبراسا وهدي لمن خلفه من الولاة والحكام .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ورضي عنه؛ كان طودًا من أطواد العلم، ونبراسًا لمن جاء بعده؛ فجزاه الله عن الأمة خير الجزاء !!

مصادر ومراجع

- القرآن الكريم
- الأعلام — خير الدين الزركلي
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب — ابن عبد البر
- الشرح والإبانة على أصول السنة و الديانة — ابن بطة العكبري
- الإصابة في تمييز الصحابة — ابن حجر العسقلاني
- الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة — عبد الله عمر الدميجي
- الإمامة والسياسة — ابن قتيبة الدينوري
- الأموال — أبي عبيد القاسم بن سلام
- البداية والنهاية — ابن كثير
- التاريخ الإسلامى — محمود شاكر
- التجديد في الفكر الإسلامي — د.عدنان محمد أسامة
- التكافل الإجتماعي في الإسلام — محمد أبو زهرة
- الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة — حياة بن محمد بن جبريل
- الجامع لأحكام القرآن — القرطبي
- الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز(رسالة ماجستير) نعمة الله رحمة الله — نورستاني
- الجيش والسياسة في العصر الاموي ومطلع العصر العباسي: ٤١هـ/٦٦١م – ٣٣٤هـ /٩٥٦م (دراسة تاريخية) — فاروق عمر فوزى
- الحركة العلمية في العصر الاموي في المشرق — عبدالرحمن أحمد حفظ الدين

الاسلامي (٤١- ١٣٢هـ / ٦٦١- ٧٤٩) دراسة تاريخية (رسالة ماجستير)	
• الحضارة العربية الإسلامية ،	د. شوقي أبو خليل
• الأحكام السلطانية والولايات الدينية	الماوردي
• الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي	عبدالله محمد السيف
• الخطط المقريزية (المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الاثار)	تقى الدين المقريزى
• الخلافات السِياسية بين الصحابة رضي الله عنهم	محمد بن المختار الشنقيطي
• الخلافة	رشيد رضا
• الخلفاء الراشدون القادة الأوفياء وأعظم الخلفاء	حسن أيوب
• الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز	وهبة الزحيلي
• الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز	على محمد الصلابي
	أبي الفضل بن الشحنة
• الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب	السيد محمد السيد عمر
• الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام	محمد الخضري بك
• الدولة الأموية	ابن أبي الدنيا
• الرقة والبكاء	ابن تيمية
• السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية	عمر بن عبد العزيز بشير كمال
• السياسة الاقتصادية والمالية	عابدين
	قطب إبراهيم محمد
• السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز	الآجري

- الشريعة — ابن قتيبة
- الشعر والشعراء — ابن القيم الجوزية
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية — ابن سعد
- الطبقات الكبرى — عبد الشافي محمد عبد اللطيف
- العالم الإسلامي في العصر الأموي — تقي الدين الفاسي
- العِقْد الثَّمين في تاريخ البلد الأمين — ابن عبد ربه
- العقد الفريد — أبي بكر بن العربي
- العواصم من القواصم — ابن حزم الظاهري
- الفصلل في الملل و الأهواء والنحل — ابن الأثير
- الكامل في التاريخ — ابن يزيد المبرد
- الكامل في اللغة والأدب — تحقيق : محمد الدالي
- الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز — عمر بن محمد الخضر الملاء
- المجددون في الإسلام — عبد المتعال الصعيدي
- المستطرف فى كل فن مستظرف — شهاب الدين محمد الأبشيهي
- المسند — الإمام أحمد بن حنبل
- المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي — محمد محمد حسن شراب
- المعجزة التربوية لعمر بن عبد العزيز — د. نظمي خليل أبو العطا
- المغازي — محمد بن عمر الواقدي
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم — ابن الجوزي
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) — د. مانع بن حماد الجهني

إشراف وتخطيط ومراجعة	ابن تغري بردي
• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	محمد بن مشبب بن سلمان
• النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن	القحطاني
عبد العزيز	مفلح النمر الفايز
• أثار عمر بن عبد العزيز الأدبية: تحقيق ودراسة	د. عبد الله بن عبد الرحمن بن
• أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية	زيد الخرعان
	ابن القيم الجوزية
• أحكام أهل الذمة	أبي حامد الغزالي
• إحياء علوم الدين	الزبيدي
• تاج العروس من جواهر القاموس	الإمام الذهبي
• تاريخ الإسلام	كارل بروكلمان
• تاريخ الشعوب الإسلامية	ابن جرير الطبري
• تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)	ف . بارتولد، ترجمة حمزة طاهر
• تاريخ الحضارة الاسلامية	جلال الدين السيوطي
• تاريخ الخلفاء	د . محمد بن ابراهيم ابا الخيل
• تاريخ الخلفاء الراشدين	د محمد سهيل طقوش
• تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات	
السياسية	الخطيب البغدادي
• تاريخ بغداد	اليعقوبي
• تاريخ اليعقوبي	ابن عساكر
• تاريخ مدينة دمشق	د. علي عدلاوي
• تجربة المصالحة والإصلاح في الحكم الإسلامي –	

خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نموذجا   الإمام الذهبي

- تذكرة الحفاظ   ابن كثير
- تفسير القرآن العظيم   ابن حجر العسقلاني
- تهذيب التهذيب   اسراء عمران احمد عبد الكافي
- دور القيادة في الإصلاح السياسي (دراسة العلاقة بين الفكر والممارسة – قيادة عمر بن عبد العزيز نموذجًا) (رسالة ماجستير)   أبي هلال العسكري
- ديوان المعاني   ابن عبد البر
- جامع بيان العلم وفضله   نئ بن عمر نئ عبد العزيز
- الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (رسالة ماجستير)   ناصر بن محمد الأحمد
- حركة الجهاد والفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية (رسالة دكتوراه)   السيوطي
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة   أبي نعيم الأصفهاني
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء   غوستاف لوبون
- حضارة العرب   هاني أحمد فقيه
- خطوات في فقه التعايش والتجديد   أبوبكر الطرطوشي
- سراج الملوك   شهاب الدين بن أبي الربيع
- سلوك المالك في تدبير الممالك   عبدالملك العاصمي
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي   أبو داود السجستاني
- سنن أبي داود   عز الدين جسّوس
- سياسة عمر بن عبد العزيز الخارجية وموقفه تجاه

أهل الذمة	ابن عبد الحكم
• سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه	ابن الجوزي
• سيرة عمر بن عبد العزيز	الإمام الذهبي
• سير أعلام النبلاء	ابن العماد الحنبلي
• شذرات الذهب في أخبار من ذهب	الإمام البخاري
• صحيح البخاري	الإمام مسلم
• صحيح مسلم	ابن الجوزي
• صفة الصفوة	عبد الستار الشيخ
• عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين	د. محمد عماره
• عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمة وخامس الراشدين)	ناصر بن علي عائض حسن
• عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم (رسالة دكتوراه)	الشيخ
• عيون الأخبار	ابن قتيبة
• فتوح البلدان	البلاذري
• فجر الإسلام	أحمد أمين
• فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة	عبد السلام عيادة علي الكربولي
الإسلامية (رسالة دكتوارة)	د. محمد بن سعد بن شقير
• فقه عمر بن عبد العزيز	د. محمد بيومي
• في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين	محمد صدقي البورنو الغزي
• قدوة الحكام والمصلحين عمر بن عبد العزيز	ابن أيبك الدواداري
• كنز الدرر وجامع الغرر	علاء الدين علي المتقى الهندي

• كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال — ابن منظور

• لسان العرب — ابن القيم الجوزية

• مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين — أبي الحسن بن على المسعودي

• مروج الذهب ومعادن الجوهر — خالد محمد خالد

• معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز — ابن خلدون

• مقدمة ابن خلدون — محمد رواس قلعجي

• موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز — تركي بن الحسن الدهماني

• نزهة الأديب والكاتب البليغ — الكندي

• ولاة مصر — ابن خلكان

• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

الفهرس

هذا الكتاب

جاء الخليفة العادل رضي الله عنه في ظل ظروف سياسية واقتصادية سيئة وفتن تضرب ربوع البلاد، ولم يكن لدى عمر بن عبدالعزيز عصا سحرية، وزعت الرخاء على الأمة، ولكنه استنهض الهمم بالأفعال قبل الأقوال، ولم يقف على متخاذل كسول ولا انصاع إلى رغبة طامع جهول، فنهضت الأمة بأسرها تسعى إلى رقيها، بصغيرها وكبيرها، برجالها ونسائها فكانت صحوة تسعى بكتلتها وبكامل حجمها حتى وصلت الأمة إلى الاستقرار والأمان.

خلال عامين وخمسة أشهر وأربعة أيام تقريباً استطاع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يسطر معجزة تربوية في تاريخ الإسلام؛ ففي هذه الفترة الوجيزة استطاع هذا الخليفة العادل أن يضع الأسس والأهداف لتربية المجتمع المسلم وفق المنهج النبوي الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته، والذي يحرم فيه الغش، والكذب، والرشوة، والفساد على الرعية.

دار نوبل للنشر والتوزيع

